

مِشْطَا

العدد الثاني - فبراير ٢٠١٧

من الشرارة يولد اللهب



المركز الماركسي - اللينيني للدراسات والأبحاث والتكوين

محتويات العدد الثاني من الشرارة

بصدد المادية الجدلية - مقدمات أولية -	3.....
النظرية المادية الجدلية للمعرفة من خلال كراستي ماو " في الممارسة العملية " و "من أين تأتي الأفكار الصحيحة"	22.....
حول قانون التناقض - الجزء الأول	38
حول قانون التناقض - الجزء الثاني	46
ملحق:	
ضد التحريفية - دفاعا عن الماركسية - اللينينية - محاولة أولية -	67

منشورات المركز الماركسي - اللينيني للدراسات و الأبحاث و التكوين
فبراير ٢٠١٧

بصدد المادية الجدلية

- مقدمات أولية -

مقدمة

منذ انقسام المجتمع إلى طبقات، و تطور قسمة العمل الاجتماعي، و بروز إمكانية تطور الفكر الفلسفي، دأب الفلاسفة القدامى على محاولة تفسير الكون و العالم، بإعطاء فكرة عامة عن الطبيعة و المجتمع، و في محاولاتهم تلك انقسم الفلاسفة إلى معسكرين: معسكر مثالي و معسكر مادي. و قد استطاع الفلاسفة اليونان القدامى أن يقدموا فهما صحيحا و موضوعيا إلى حد ما للعالم، حسب الحدود التي كانت تسمح بها ظروفهم التاريخية، عالم يتحرك و يتغير و يتلاشى.

هذه الحقيقة الديالكتيكية كان الفيلسوف هيراكليت¹ أول من عبر عنها، أي أن الديالكتيك ولد في اليونان، لكن الديالكتيك في العصور القديمة، كما يقول ماوتسي تونغ²، "كان يتصف بصفة العفوية و السذاجة، و في الظروف الاجتماعية و التاريخية التي كانت تسود في تلك الأيام، لم يكن من الممكن أن يأخذ شكل نظرية كاملة، و هكذا عجز عن تفسير الكون تفسيراً كاملاً، فحلت الميتافيزيقا فيها بعد محله".

1. هيراكليت: فيلسوف يوناني عاش قبل سقراط، فيلسوف مادي قال أن كل شيء في تغير و حركة مستمرة و هو صاحب مقولة "لا تستطيع أن تسبح في نفس النهر مرتين" تعبيراً على أن مياهها جديدة تتدفق فيه، و أن نظام العالم واحد لم يصنعه أحد هو دائماً و سيكون كذلك أبداً.

2. ماو تسي تونغ: (1893 - 1976) زعيم الحزب الشيوعي الصيني منذ 1935 حتى وفاته، سياسي و قائد عسكري، زعيم الثورة الصينية و قائدها، و مبدع الثورة الثقافية البروليتارية الصينية، و قائد الثورة العالمية في مواجهة التحريفية. توفي سنة 1976.

1. تعريف المادية الديالكتيكية (الجدلية)

- طابعها العملي: يتجلى في تأكيدها على تبعية النظرية للممارسة و ارتكازها على هذا الأساس، ثم العودة لخدمة الممارسة.

2. المادية والديالكتيك: نبذة تاريخية

عرف الظرف الذي نشأت فيه المادية الديالكتيكية تعدد الاكتشافات العلمية (فيزياء، كيمياء، بيولوجيا...) وعناصر تركيز نظام اجتماعي جديد هو النظام البورجوازي، و كل ما صاحبه من انهيار ركائز النظام الإقطاعي، ثم ولادة حركة جديدة في التاريخ، هي حركة طبقة البروليتاريا³.

فالانقلاب التاريخي الذي شهدته أوروبا على المستوى الاجتماعي و السياسي و الإيديولوجي أثر تأثيرا حاسما في نشأة المادية الديالكتيكية.

- المادية القديمة و مادية ماركس:

إن ما يميز مادية ماركس عن المادية القديمة، هو كون أصحاب المادية القديمة لم يكونوا ماديين إلا في تفسير ظواهر الطبيعة، أما في

المادية الديالكتيكية هي نظرة فلسفية علمية للعالم، و هي جزء مكون للنظرية الماركسية و أساسها الفلسفي، و قد وضع ماركس و انجلز الأسس الفلسفية للمادية التي تبلورت في منتصف أربعينيات القرن 19، و تطورت مرتبطة بالتقدم العلمي و مسيرة الحركة العمالية الثورية، و كان ظهورها ثورة في تاريخ الفكر الإنساني و تاريخ الفلسفة. فالمادية الديالكتيكية هي أحد المصادر الثلاث للنظرية الماركسية - اللينينية و مكونها الفلسفي، إن فلسفة الماركسية هي المادية الديالكتيكية. بالنسبة لكارل ماركس و فردريك انجلز، فالديالكتيك المادي هو علم القوانين العامة للحركة و التطور في الطبيعة و المجتمع و الفكر.

لقد تبلورت الماركسية كنتاج للصراعات الطبقة للبروليتاريا، فشكلت تعبيرها النظري، و في نفس الوقت مثلت ثورة فلسفية عميقة. إن الماركسية كانت أول فكر يفسر إمكانية الثورة الاجتماعية، في كل مجالات الحياة الاجتماعية، و منذ انطلاقتها الأولى تميزت الماركسية بخاصيتين أساسيتين:

- طابعها الطبقي: تطرح الماركسية بوضوح انحيازها للبروليتاريا، و اعتبرت أن المادية الديالكتيكية تخدم هذه الأخيرة.

3. البروليتاريا: طبقة العمال الأجراء المعاصرين، الذين لا يملكون أي وسائل إنتاج، فيضطرون إلى بيع قوة عملهم لكي يعيشوا. (تعريف البيان الشيوعي للبروليتاريا).

الفيلسوف الألماني المثالي هيغل، و بحكم مثالية هذا الأخير، ظل الديالكتيك عنده يحتوي على نواقص كبيرة.

إن ديالكتيك هيغل⁵ لم يكن مطبقا إلا على تطور الفكرة أي على الوعي، فالفكرة عند هيغل هي التي تتطور و تنتقل من حالة إلى أخرى، أما الطبيعة فلا تطور لها في الزمان، أي ليس لها تاريخ خاص، لكن فلسفة هيغل، وإن كانت مثالية، فقد قدمت خدمة عظيمة للأهمية للديالكتيك، يقول ماو تسي تونغ " لكن ديالكتيكه كان مثالي النزعة، حتى جاء ماركس و انجلز، هذان المعلمان العظيمان للحركة البروليتارية، فلخصا المنجزات الإيجابية في تاريخ المعرفة البشرية، و استوعبا على الأخص بصورة ناقدة العناصر المعقولة في ديالكتيك هيغل".

إن النظام الفلسفي المثالي لهيغل، يعتبر أن تطور الفكر هو الذي ينظم سير التاريخ، لقد كان الطرح الهيجلي يقوم على تصور يعتبر أن الفكرة المطلقة (خالقة العالم) هي ذات و موضوع في آن واحد، و هي في مجرى تطورها مرتبطة بالعالم بشكل لا انفصام فيه، و قياسا على ذلك تأخذ الحركة الديالكتيكية لديه طابعا موضوعيا يستحيل معه تغيير هذه الحركة بمجرد

تفسير الحياة الاجتماعية فقد ظلوا مثاليين، لذلك كان نقد نواقص المادية القديمة نقدا جذريا و دحضها شرطا ضروريا لإنشاء المادية الديالكتيكية، و إذا كان ماركس و انجلز قد أبقيا الأساس المادي للفلسفة السابقة أي الفهم المادي للطبيعة، فقد قاما بتثويره عبر ربطه بالديالكتيك و بالعلاقات الاجتماعية، مقدمين بذلك للبشرية و للبروليتاريا نظرية مادية جدلية متكاملة، مقدمان بذلك للبشرية فهما ثوريا جديدا للعالم و التاريخ، فقد رأيا مهمتهما في إتمام بناء المادية ليصلا بها إلى القمة، و إعطاء البشرية فهما ماديا علميا للتاريخ، و لتنفيذ هذه المهمة اقتضى الأمر منهما وضع ديالكتيك ثوري، و توحيد المادية و الديالكتيك في مذهب موحد كامل هو المادية الديالكتيكية و تطبيقه على تاريخ المجتمع⁴. هكذا بلور كارل ماركس و رفيقه فريدريك انجلز سلاحا البروليتاريا الثوريين: المادية الديالكتيكية و المادية التاريخية.

- كيف تطور الديالكتيك:

لقد تطورت المادية و الديالكتيك كقاعدتين منفصلتين عن بعضهما البعض، فالمادية ظلت ميتافيزيقية غير ديالكتيكية، أما الديالكتيك فقد تطور في المذاهب الفلسفية المثالية، و لا سيما في مذهب

5. هيغل: جورج فيلهلم فردريش (1770 - 1831)، من عائلة بروسية (نسبة إلى بروسيا)، فيلسوف ألماني، يعتبر أحد أهم الفلاسفة الألمان، أهم مؤسسي الفلسفة الألمانية المثالية في القرن 19، تقوم فلسفته على اعتبار أن الوعي سابق للمادة عكس ما تقول به الفلسفة الماركسية، ترك هيغل حوالي 20 مجلدا نشرت بالألمانية، و ترجم معظمها إلى عدة لغات بما فيها العربية .

4. انظر "الإيديولوجية الألمانية" ماركس انجلز.

مع فلسفة هيغل ، و بقدر ما أن ماركس ابتغى التغلب على النقص الجذري في دياكتيك هيغل ، ابتغى كذلك الحفاظ على كل ما هو تقدمي فيه .
و لقد حطم فيورباخ⁶ نظام هيغل الفلسفي المثالي ، لكن احتاج الأمر إلى عبقرية ماركس من أجل استخراج النواة الثورية و تحطيم النظام الفلسفي الهيجلي ، و قد أصبح الديالكتيك على يد ماركس ماديا بعدما كان مثاليا عند هيغل .

3) دياكتيك ماركس و ماديته:

إن النواة العقلية في دياكتيك هيغل التي عثر عليها ماركس ، تكمن في التأكيد بأن كل شيء في العالم يوجد في تغير و تطور ، و أن التناقضات الداخلية هي مصدر هذا التطور ، لكن من أجل فصل هذا المذهب التقدمي للتطور عن القشرة المثالية ، كان من الضروري صياغة دياكتيك هيغل من جديد صياغة جذرية على أساس مادي و إضفاء شكل علمي معاصر عليه ، و انطلق ماركس كذلك من الإسهام الهيجلي لضرب

6. فيورباخ لودفيغ: (1804 - 1872) فيلسوف مادي ألماني ، أثر تبنيه للمادية و دفاعه عنها على معاصريه ، في البداية كان تلميذا لهيغل ، ثم أصبح من أهم معارضيه ، نقد فهم هيغل المثالي لجوهر الإنسان و نبذه للمثالية بصفة عامة ، و قد ظل فيورباخ في فهمه للتاريخ يتخذ مواقف مثالية ، من أهم كتبه "في نقد الفلسفة الهيجلية".

فعل إرادي ذاتي ، و هنا ينحصر دور الفيلسوف في فهم سيرورة التاريخ ليس إلا .

إن جوهر فلسفة هيغل خاصة علاقة الفكرة المطلقة بالطبيعة ، يقوم على اعتبار الفكرة المطلقة هي الأساس أي المحرك ، بينما الطبيعة هي انعكاس للأولى من خلال مسيرة تطورها الديالكتيكي .

بالنسبة لهيغل فإن الذات المفكرة هي وسيط للفكرة ، التي تعبر عن نفسها كمنطق (للذات) ، و كطبيعة (مخالفة للذات) ، ثم العودة إلى ذاتها (عودة الذات لذاتها) .

و بالنسبة لماركس ، و بعد عملية القلب المادي الديالكتيكي ، أصبح الكائن الإنساني يحتل موقعا مركزيا ، و الواقع القائم نتاج للتاريخ مما أدى بماركس إلى بلورة دياكتيك مادي ملموس ، مقابل دياكتيك هيغل المثالي .

كان ماركس ملما بفلسفة هيغل ، فقد تعامل معها باعتبارها وحدة متناقضة ، تجمع نظاما فلسفيا يحتوي نزعة محافظة تكرر الواقع ، و في نفس الوقت يحتوي على نواة دياكتيكية سيزيل عنها طابعها المثالي لتصبح دياكتيكا ماديا .

لقد استنبط ماركس و انجلز النظرية العظيمة ، نظرية المادية الديالكتيكية و المادية التاريخية ، من خلال تعامل نقدي ، مادي و جدلي

الفلسفة المثالية الذاتية (كما هو الحال عند بركلي⁷ و لدى كانط⁸ في شكل آخر).

إن إنكار إمكانية معرفة العالم وقوانينه، حظيت بكل دحض على يد ماركس و انجلز، فالمادية الفلسفية الماركسية تقوم على المبدأ القائل بأن وحدة العالم في ماديته، و من الممكن معرفة العالم وقوانينه، و الديالكتيك في الجوهر ضد الميتافيزيقا، تلك الطريقة في التفكير الفلسفي التي تنكر الروابط بين الأشياء و الحوادث و تنظر إليه في انفصال عن بعضها، بينما الديالكتيك يعتبر الطبيعة كلا واحدا متماسكا، ترتبط فيه الأشياء ارتباطا عضويا يكون بعضها شرطا لبعض بصورة متقابلة. يقول لينين: "في الديالكتيك القديم، لا وجود للانتقال و لا للتطور (المفاهيم و

الأفكار)، لا وجود لعلاقات داخلية و ضرورية للأجزاء كلها، و لا وجود لانتقال الواحد إلى الآخر".

لم يكن ممكنا القيام بصياغة جذرية للديالكتيك على أساس مادي ثوري، و إضفاء الشكل العلمي عليه إلا استنادا على منجزات النشاط و العلم الثوريين، فتطبيق ماركس و انجلز للمنهج الديالكتيكي الذي صاغه في دراسة الطبيعة و المجتمع، قد مكنهما من إنشاء مذهب فلسفي يجمع المادية و الديالكتيك في وحدة لا تنفصم، و هكذا نشأت المادية الديالكتيكية بوصفها نظرة ثورية جديدة إلى العالم، تلك النظرة التي تستجيب كليا لمصالح و أهداف نضال البروليتاريا التحرري. إن المادية الديالكتيكية سلاح فكري يساعد البروليتاريا و الكادحين على بناء الحياة الجديدة، من خلال بناء المجتمع الإشتراكي و الشيوعي، إن المادية الديالكتيكية هي المفهوم البروليتاري للعالم.

فماهي المادية الديالكتيكية وماذا تعلم؟

إن المفهوم الخاص بالمادة هو حجر الزاوية في المادية، في كتابه "المادية والمذهب النقدي التجريبي" يعرف لينين مفهوم المادة كما يلي:

7. بيركلي جورج: (1685 – 1753)، فيلسوف انجليزي مثالي ذاتي، أهم كتبه "مبحث خاص بمبادئ المعرفة الإنسانية"، يقول أن الإنسان لا يدرك شيئا بطريقة مباشرة سوى أفكاره وإحساساته، و أن الأشياء لا توجد إلا في المدى الذي يمكن فيها أن تدرك (أن يوجد الشيء يعني أن يدرك)، و قد اقتبست منه الكثير من المدارس المثالية مثل المدرسة النقدية التجريبية و البراغماتية و غيرها، و قد نالت فلسفة بركلي و أتباعه في القرن العشرين نقدا من لينين في كتابه "المادية والمذهب النقدي التجريبي".

8. كانط إيمانويل: (1724 – 1804)، فيلسوف و عالم ألماني، مؤسس المثالية الكلاسيكية الألمانية، هو مؤسس المثالية النقدية، من أهم كتبه "نقد العقل الخالص" "نقد العقل العملي"، أكد بأن طبيعة الأشياء كما توجد هي نفسها، أي الأشياء في ذاتها، و هي غير متاحة للمعرفة الإنسانية.

بالنسبة للإحساس و المادة، فإن الإحساس ليس جوهرًا مستقلاً و منتصباً أمام المادة، فالإحساس هو نسخة، صورة، انعكاس للمادة، و هذا الانعكاس موجود في المادة و بفضل المادة، إن هذا هو أساس وحدة العالم: وحدته المادية.

أما بالنسبة لحركة المادة، فإن كل شيء يتحرك في الكون و في المجتمع، إن الحركة هي وسيلة لوجود المادة، بل خاصية ملازمة لها داخليا، و تتضمن جميع التبدلات و العمليات التي تجري في الكون، بدءا بالتنقل البسيط، و انتهاءا بالتفكير، هناك تنوع في الطبيعة يساوي تنوعا في أشكال حركتها، و للحركة خمسة أشكال أساسية:

(1) الشكل الميكانيكي: تنقل الأجسام ميكانيكيا بالنسبة لبعضها.

(2) الشكل الفيزيائي: و يتمثل في العمليات الحرارية الكهربائية، الظواهر الضوئية، و التجاذب المتبادل، العمليات الجارية داخل الذرة و داخل النواة.

(3) الشكل الكيميائي: و يعني مختلف العمليات الكيميائية.

(4) الشكل البيولوجي: كل ما يتعلق بالحياة العضوية.

"المادة هي مقولة فلسفية للدلالة على الواقع الموضوعي الذي أعطي للإنسان في إحساساته ... المادة هي ما يؤثر على أعضاء حواسنا و يثير الإحساس، المادة هي واقع موضوعي أعطي لنا في الإحساس".

- المادة و الإحساس و الانعكاس:

يقول انجلز "ليس الكون سوى مادة في حالة حركة، و هذه المادة التي هي في حالة حركة، لا يمكن أن تتحرك إلا في المكان و الزمان"، و يعرف لينين المادة بأنها: "حقيقة موضوعية، خارجية و مستقلة عن الفكر، و ليست بحاجة للفكر لكي تعيش". و يقول أيضا: "إن المادة هي مقولة فلسفية للدلالة على الواقع الموضوعي الذي تعرفنا عليه إحساساتنا، الواقع الذي تنسخه هذه الإحساسات، تصوره و تعكسه، و يوجد بشكل مستقل عنها".

إن منطلقات الفكر المادي الفلسفي تقوم على ما يلي:

(1) الاعتراف بوجود موضوعي للمادة، المتطورة، المتحركة بشكل

أبدي.

(2) الإقرار باستقلالية الطبيعة عن الوعي.

(3) اعتبار نشوء الإنسان و وعيه هو درجة معينة من تطور الطبيعة،

كنتاج رفيع لها، في حين وجدت الطبيعة بشكل خالد.

(5) الشكل الاجتماعي: تاريخ المجتمع البشري.

عموما، لا يمكن للمادة أن توجد إلا في الحركة.

-المادة، الحركة و السكون:

إن وجود الحركة في المادة لا ينفي السكون و التوازن خلال السير العام المتواصل باستمرار التبدلات المادية، و السكون و التوازن هما نسبيان، هناك سكون فقط بالنسبة لهذا الشيء أو الآخر، وليس بالنسبة إلى المادة ككل، و المثال الكلاسيكي على نسبة السكون هو مثال المسافر و القطار، فهناك سكون المسافر بالنسبة لحركة القطار، و لكن جسم المسافر هو مقر لعمليات حركية متنوعة و بفضلها يوجد المسافر ككائن.

"إن إمكانية السكون النسبي للأجسام، أي قيام توازن مؤقت، هو الشرط الأساسي لتمييز المادة، و بالتالي هو أهم شرط لشروط الحياة".
و الخلاصة أن السكون أو التوازن نسبيان أما الحركة فمطلقة، و هناك وحدة حسية للحركة و السكون.

- الامتداد المكاني:

يعتبر المكان و الزمان البعد الآخر للمادة، أو ما يسمى بإشكالية الامتداد، أو ما يطلق عليه أحيانا بالزمكانية، فلا وجود لشيء خالي من الامتداد (الأبعاد الثلاثة: الطول العرض و الارتفاع).

إن كل شيء في هذا العالم المحيط بنا قائم في مكان ما بين أشياء أخرى، و هذا ما يطلق عليه بالامتداد المكاني، الذي هو خاصية موضوعية للأشياء مستقلة عن إحساساتنا و إدراكاتنا و وعينا. إن المكان هو الشرط الأساسي لحركة المادة، بل شكلها الحقيقي الموضوعي، شرط وجودها المتحرك.

- الامتداد الزمني:

كل الأجسام موجودة في الزمان، فهناك دائما الماقبل و المابعد، و كما أن كل الأجسام موجودة في المكان فهي كذلك موجودة في الزمان، إن الزمان له وجود موضوعي مستقل عن إحساساتنا و إدراكاتنا و وعينا، و أنه لولا التباين الزمني بين المراحل المختلفة لعملية واحدة لما وجدت هذه المراحل ذاتها، و بالتالي لما وجدت أي تبدلات مقنونة (من القانون).
يقول لينين: "ليس في الكون شيء غير المادة المتحركة، و لا تستطيع هذه المادة المتحركة أن تتحرك بغير إطار من الزمان و المكان".

وفي تعريف الامتدادين يقول لينين:

"المكان هو انتظام تعايش الأشياء المادية، و أن الزمان هو انتظام توالي تبدل مراحل العمليات المادية، ينبغي أن نستتبع من هذا أن علاقة الزمان والمكان غير منفصلة عن المادة".

إن الزمان و المكان موضوعيان، مستقلان عن الوعي و خالدان بسبب خلود المادة، هذان الامتدادان كان موجودين و هما موجودان و سيظلان موجودين، فهما غير محدودين و غير نهائيين.

على قاعدة ما جاء أعلاه، لا يوجد عالمان، عالم مادي و عالم غير مادي، و من هنا تحتل نظرية الانعكاس التي طورها لينين، قيمة فلسفية كبيرة، فسيرورة الفكرة هي انعكاس لسيرورة المادة المتحركة بشكل أبدي و نهائي.

خلاصتنا حول المادة، أنه ما من شيء في الطبيعة ينشأ من لا شيء، و لا يزول أبدا دون أثر، بل يتحول فقط إلى أشكال أخرى من المادة، و المادة لا تنفصل عن الحركة، و الحركة كما يبين انجلز تشتمل على كل المتغيرات و العمليات الدائرة في الكون، الحركة هي جميع التغيرات التي تجري في الأشياء و في الظواهر، و لا وجود للمادة بلا حركة، و المادة لا توجد إلا في الحركة، و إن جميع الأشياء توجد في المكان، و يستحيل أن توجد في غير المكان، و إن كل ما يتم في العالم يجري في

الزمان، لذا كان الزمان شكلا لوجود المادة، كما أن المكان شكل لوجود المادة، فلا وجود للأشياء خارج المكان و الزمان.

يقول لينين: "ما من شيء في العالم غير المادة المتحركة، و لا تستطيع الحركة إلا في المكان و الزمان. و عليه فإن الزمان و المكان مرتبطان ارتباطا وثيقا و يستحيل فصل أحدهما عن الآخر، و يستحيل فصلهما عن المادة، و المكان بلا نهاية و الزمان سرمدي، أي لا نهائية العالم و وحدته. إن هذا يعني أنه ما من ظاهرة في العالم ليست نتيجة لحركة المادة و لتطورها، و هذا يعني أن هناك عالما واحدا فقط، هو العالم المادي، و أن وحدة العالم تكمن في ماديته".

- فما علاقة العالم المادي بالوعي ؟

إن الوعي هو خاصية مادة عالية التنظيم، الوعي إنما هو الأفكار و الإحساسات و التصورات و الإرادة، و الإنسان هو الذي يتصف بها بالدرجة الأولى.

إن الطبيعة وجدت ليس فقط قبل الإنسان، بل أيضا قبل الكائنات الحية، و أنها بالتالي مستقلة عن الوعي، و هكذا فإنه لا وجود للوعي و لا يمكن أن يوجد بدون مادة، و الوعي ليس نتاج أي مادة كانت، إنه نتاج نشاط الدماغ الذي هو مادي، الوعي هو وظيفة الدماغ، لكن لا

أ- التغير الديالكتيكي:

يقول انجلز: "ليس من شيء نهائي، مطلق، مقدس بالنسبة للديالكتيك"

الحركة الديالكتيكية تقوم على قانون: "لا شيء يبقى حيث هو، و لا شيء يظل على ما هو".

الديالكتيك إذن، هو حركة و تغير، فكل شيء مؤقت، له تاريخ في الماضي، و تاريخ في المستقبل، أي بداية و نهاية.

في الحقيقة ليس هناك شيء سوى السيورة المستمرة للصيرورة و الانتقال، فكل شيء هو نهائي، له ماضي و مستقبل، و لا وجود لشيء مرة واحدة و إلى الأبد، فما هو عليه اليوم ليس نهائياً، مثال التفاحة أو المجتمع، و كل شيء ليس مطلقاً، و ليس بالإمكان تثبيت الأشياء في حالة نهائية، لا شيء مطلق، بما يعني أنه لا وجود لشيء ما قد لا يخضع لأي شرط، أي كلي خالد و كامل، و لا شيء مقدس، بما يعني اعتباره ثابت لا يجب لمسه أو مناقشته، فهذا منافي للديالكتيك، فوحده التغير خالد.

ب- مفهوم السيورة:

يكفي أن يملك الإنسان دماغاً مكتملاً لكي يمتلك الوعي البشري، بل عليه أيضاً أن يعيش في مجتمع، في جماعة، فلا وجود للتفكير البشري خارج الجماعة، فالتفكير ينشأ نتيجة لحياة الناس في مجتمع، و لا يمكن للتفكير أن يظهر إلا حينما يعكس الإنسان الطبيعة من جهة، و عندما يدخل من جهة أخرى في علاقات معينة مع أناس آخرين في النشاط العملي الإنتاجي. إن العمل هو الذي خلق الإنسان، المجتمع الإنساني، و في سياق العمل بالذات، و في سياق النشاط الإنتاجي تطور الدماغ البشري و الوعي البشري. إن الوعي هو نتاج حياة الإنسان في المجتمع، إنه ظاهرة اجتماعية، إن الوعي لا يمكن أن يكون خارج المجتمع، كما أنه لا وجود للتفكير بغير الغلاف اللغوي المادي، و بفضل اللغة لا تصاغ الأفكار فحسب، بل تنقل كذلك للناس الآخرين.

لقد أوضحنا ما هي المادية، و في أي أشكال توجد، فما القوانين التي بموجبها تتم حركة المادة و كل تطور في الطبيعة و المجتمع و الوعي البشري؟

4) الديالكتيك و قوانينه:

* تعريف الديالكتيك:

فلسفي (ليس القانون الحقوقي) أي القوانين الموجودة موضوعيا في الطبيعة نفسها و المجتمع ذاته، و أهم سمة للقانون هو كونه موضوعيا، و إذا كانت القوانين تقرر بالصلوات الجوهرية التي تميز جميع الظواهر في الطبيعة و في المجتمع و التفكير، فإنها تسمى قوانين عامة، أي قوانين الديالكتيك.

فما هي هذه القوانين ؟

(1) التفاعل والترابط الشامل:

- هناك ترابط للسيرورات، مثلا سيرورات التفاحة والشجرة و الأرض، و العالم مجموعة من السيرورات.
- لقد أتاح تطور العلوم في القرن 19 إمكانية إعلان قانون الفعل المتبادل، بما يعني أنه لا وجود لقطيعة بين الممالك الثلاث: النباتية، الحيوانية و المعدنية، و هاته الاكتشافات الثلاث هي:
- اكتشاف الخلية الحية و نموها من طرف البيولوجيان الألمانيان (شليدن، شوان: عالمان ألمانيان في علم البيولوجيا).
- اكتشاف تحول الطاقة: الصوت، الحرارة، الضوء.
- اكتشاف التطور عند الإنسان و الحيوان (شارل داروين، كتاب أصل الأنواع).

مصطلح فلسفي مشتق من اللاتينية برو سيسوس (processus) و تعني السير إلى الأمام، أو فعل التقدم أو الرقي، مثلا تطور التفاحة عن طريق تسلسل داخلي تحركه دينامية داخلية خاصة بها. و يعني الديالكتيك هنا، أنه ليس فقط حركة، بل هو دينامية ذاتية، مصدر داخلي لتطور الأشياء.

* قوانين الديالكتيك:

الديالكتيك هو علم القوانين العامة لتطور ظواهر الواقع الموضوعي و عملية المعرفة، فهناك ديالكتيك موضوعي يتعلق بالظواهر العامة الملموسة في الواقع المادي المستقل عن الفكر، وهناك ديالكتيك ذاتي هو انعكاس للأول و يرتبط بدينامية الفكر الإنساني، كما أن الديالكتيك هو منهج ثوري في معرفة الواقع و تغييره.

إن هذه القوانين هي أعم القوانين التي تخضع لها جميع الأشياء و الظواهر في العالم على الإطلاق، و تسمى قوانين الديالكتيك، و التي ترتبط فيما بينها ارتباطا وثيقا، و تعطي مجتمعة التصور الشامل عن التطور الذي يجري في العالم (الطبيعة و المجتمع و الفكر).

فما هو القانون ؟ إنه التعبير العام المشترك في الظواهر، و عليه، فالقانون يعطي المعرفة عن أعمق الأشياء و أعمها، و القانون هو مفهوم

إن الديالكتيك ينطلق من المضمون الداخلي للأشياء، يأخذ في نفس الوقت بعين الاعتبار العلاقات المتبادلة فيما بينها (قانون التفاعل و الترابط الشامل)، لكن مصدر الحركة في الشيء داخلي، أي التناقضات داخلية في الأشياء.

إن التناقض هو مصدر الحركة، السبب الأساسي لها، و الترابطات فيما بين الأشياء هي الأسباب الثانوية، إن العامل الداخلي هو قاعدة التحول و التغيير، أما العامل الخارجي فهو شرط التحول أو التغيير، ذلك أن العوامل الخارجية تسبب فقط الحركة الميكانيكية للأشياء و الظواهر، فهناك تغيير في الحجم و الكم و لا تستطيع تفسير وجود الكيف، و الانتقال من كيف إلى آخر. إن الحركة الميكانيكية تولدها قوة خارجية تتحقق بواسطة التناقضات الداخلية، مثال البيضة و الحرارة.

عكس الميتافيزيقا، فأساس الديالكتيك يقوم على اعتبار أن كل أشياء الطبيعة و حوادثها تتضمن تناقضات داخلية، لأن لها جميعها جانبا سلبيا و جانبا إيجابيا، ماضيا و حاضرا، و فيها جميعها عناصر تضحل أو تتطور، فصراع الأضداد هذا، أي الصراع بين القديم و الجديد، بين ما يموت و ما يولد، بين ما يفنى و يتطور، هو المحتوى الداخلي لحركة التطور، هو المحتوى الداخلي لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية. يقول لينين "إن الديالكتيك بالمعنى الخاص للكلمة هو دراسة التناقضات في ماهية الأشياء نفسها" و يقول أيضا "التطور هو صراع المتضادات"،

• التطور التاريخي أو التطور الحزوني أو اللولبي، فالشيء لا يتطور في خط مستقيم (ليست هناك حلقة مفرغة أي تدور في مكانها، فكل مرة هناك تطور جديد، و هذا يتم في الطبيعة و يتم أيضا في عالم الفكر. إن الأشياء بهذا المنظور تتطور وفقا لسيرورة دائرية، لكن لا عودة لنقطة الانطلاق، بل دائما تتجه إلى الأعلى، و هذا يشمل الطبيعة و المجتمع، و محرك هذا التطور هو الدينامية الداخلية للأشياء، كما رأينا سابقا.

(2). قانون التناقض (صراع و وحدة الأضداد):

لقد رأينا أن السيرورات تتحرك وفق ديناميتها الداخلية، إن هذه الحركة مصدرها وجود تناقض، و هذا التناقض هو مصدر الحركة، و السبب الأساسي لها.

يقول لينين "الديالكتيك هو دراسة التناقض في جوهر الأشياء"، ذلك أن التناقض هو عمق الديالكتيك و نواته الأصلية، فالدينامية الذاتية المتكلم عنها أعلاه، ليست إلا صراع و وحدة الأضداد ضمن سيرورة تطور الشيء، و هذا هو مصدر الحركة.

فمن المنظور الديالكتيكي كل شيء له ازدواجية، فالواحد مزدوج أو ما يسميه ماو تسي تونغ "الواحد ينشطر إلى اثنين، و يتضح ذلك من خلال الشعار الشهير القائل، بأن الامبريالية الأمريكية نمر من ورق.

الكيفية هي الماهية الداخلية أي المرتبطة بالشيء، أي خصائص الشيء و الصفة التي تميزه، و كما توصف الأشياء و الظواهر من حيث كيفيتها توصف أيضا من حيث الكمية، و الكمية هي تعريف (ماهية) الأشياء و الظواهر التي يجري وصفها بالعدد و المقدار و الوتيرة و الدرجة و الحجم، وعندما تتغير كيفية الشيء يتغير الشيء نفسه، و كذلك يؤدي تغير كمية الشيء إلى تغير الشيء ذاته، و عليه يكمن جوهر قانون تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية، في أن التغيرات الصغيرة غير الملحوظة في البدء تتراكم تدريجيا و تؤدي في مرحلة معينة إلى تغيرات جذرية كيفية، و يسبق ذلك أن تزول الكيفية القديمة و تظهر كيفية جديدة تؤدي بدورها إلى تغيرات كمية جديدة. في بادئ الأمر تسير العملية بشكل بطيء و بصورة تدريجية، و لكن عندما تتراكم بصورة كافية تجري عمليات التغيرات الكيفية السريعة المفاجئة، إن هذا التحول يسمى القفزة (الطفرة). لهذا السبب يعرف لينين القفزة بأنها "نقطة التحول الحاسمة من كيفية قديمة إلى جديدة بأنها انعطاف حاد في التطور".

إن قانون تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية، يكشف الآلية الداخلية لتكون الكيفيات الجديدة، أي أساس التطور نفسه، لكن ما هي قوته المحركة؟ ما مصدره؟ إن هذا السؤال يجيب عنه قانون آخر للدialektik و هو قانون وحدة و صراع الأضداد.

ويقول ماو تسي تونغ "إن هذه النظرة الديالكتيكية إلى العالم تعلم الإنسان بصورة رئيسية كيف يلاحظ و يحلل بصورة صحيحة حركة التناقض في مختلف الأشياء، و كيف يستنبط على أساس هذا التحليل حلولاً للتناقضات، و لذلك، فإن فهم قانون التناقض في الأشياء فهما محددان هو أمر بالغ الأهمية"، و يقول أيضا "إن قانون التناقض الكامن في الأشياء و الظواهر، أي قانون وحدة المتناقضات، يمثل القانون الأساسي للطبيعة و المجتمع، و من هنا القانون الأساسي للفكر، إنه يتناقض مع النظرة الميتافيزيقية للعالم، و اكتشافه مثل ثورة في تاريخ المعرفة الإنسانية، حسب المادية الديالكتيكية فالتناقض يوجد في كل مسار، يحدث في الأشياء و الظواهر الموضوعية و التفكير الذاتي، فهو يتخلل كل المسارات من البداية إلى النهاية، و هنا يتمثل الطابع الكوني و المطلق للتناقض".

إذن فقانون التناقض (صراع و وحدة الأضداد) هو نواة الديالكتيك المادي.

(للمزيد من الحديث عن قانون التناقض، سيتم التطرق إليه في مقالة مستقلة).

(3) قانون تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية

(4) قانون نفي النفي:

إن قانون نفي النفي يبين كيف تترابط مراحل التطور المتتالية، كيف يترابط القديم و الجديد، و النفي يتلخص في كون الجديد يحل محل القديم، أي أن مرحلة من التطور تحل محل أخرى، و هذه العملية هي ما يسمى في الفلسفة بالنفي الديالكتيكي، و أهم صفات و خصائص النفي أنه ملازم لكل تطور في الطبيعة و المجتمع، مثلاً في عملية التطور التاريخي للمجتمع التي هي عبارة عن حلول مجتمعات محل مجتمعات أخرى أعلى تطوراً، بحكم قانون التطور الاجتماعي التاريخي، و لذلك عرف التاريخ الإنساني العديد من المجتمعات و أنماط إنتاج مختلفة، كنمط الإنتاج المشاعي و العبودي و الإقطاعي و الرأسمالي ...

و في تطور المعرفة تخلي بعض موضوعات العلم المكان لموضوعات أخرى، و هو ما يصطلح عليه بالثورات العلمية.

إن النفي يقوم على وحدة و صراع الأضداد، و النفي هو حل هذا التناقض الداخلي عن طريق التغلب على جانبه القديم المحافظ و توطيد الجانب الجديد التقدمي. و هكذا يكون التطور عملية يتعرض فيها القديم تدريجياً للنفي و الاستعاضة عنه بالجديد، و بدون هذا لا يوجد تطور. يقول ماركس "كل تطور يمكن تصويره بصورة مستقلة عن مضمونه بصورة جملة

من درجات مختلفة من التطور، مترابطة بعضها ببعض، بحيث إن كل درجة تكون نفياً للآخرى... و لا يمكن أن يجري في أي ميدان تطور لا ينفي أشكال وجوده السابقة". إلا أن الجديد لا يقضي أبداً على القديم تماماً، فالنفي الديالكتيكي يحتفظ بالإيجابي الذي كان في القديم، و الجديد يأخذ من القديم منجزات التطور السابق، كما هو الحال مع النظريات العلمية، و إن عملية النفي لا تجري بصورة خالصة تماماً، فليس كل إيجابي من القديم يبقى في الجديد، و إلى الجديد قد تنتقل بعض رواسب القديم السلبية.

إن الديالكتيك المادي لا يقتصر على المبادئ و القوانين، التي تعرب عن الصلات الهامة و العامة في الواقع المتطور، بل يدرس كذلك الصلات و الجوانب الجوهرية في تطور العالم المادي و المعرفة، التي تنعكس في مقولات فلسفية، إن المفاهيم الأساسية في هذا العلم أو ذاك تسمى المقولات، و تسمى أحياناً قوانين الديالكتيك غير الأساسية.

(5) مفاهيم و مقولات المادية الديالكتيكية

تعتمد المادية الديالكتيكية على مجموعة من المفاهيم و المقولات، و أشكال التفكير، التي لا بد من دراستها للتمكن من استيعاب و فهم مكونات الفكر المادي الديالكتيكي، سواء في طرحه الفلسفي العام (المادة كمفهوم فلسفي، قوانين الديالكتيك) أو باعتباره في نفس الوقت

نظرية للمعرفة (المعرفة الحسية و المعرفة النظرية و وحدتهما المادية و علاقتهما الديالكتيكية) أو لدراسة المنطق الديالكتيكي.

(1) **المفهوم:** هو مستوى أعلى من التجريد، يعكس جوهر الشيء، جوهر الظواهر، مثال البروليتاريا، البورجوازية، الرقم، الإلكترون، الحصان ...

يقوم المفهوم بعكس (الانعكاس) للعام و الجوهر في مجموعة كبيرة من الظواهر، و هذا العام الذي تعكسه في المفاهيم، لا يستنتج من عقولنا بل موجود موضوعيا في الظواهر و الأشياء الوحيدة، المفهوم واسطة تسمح بالإحاطة بعدد كبير من مختلف الأشياء المدركة حسيا، و يتشكل من خلال عدد كبير من الظواهر و الأشياء الوحيدة.

ملحوظة: إن إبراز العام لا يؤدي بالضرورة إلى تشكيل المفهوم العلمي، مثال: الحراثة، صيد السمك، يجمعهما وجود جهد عضلي، فهل هذه قضية جوهرية، طبعا لا فالحيوان يقوم بنفس الشيء، فلا بد إذن من ربط الجهد العضلي بمفهوم علمي للعمل.

تشكل المفاهيم عبر استخدام أساليب البحث العلمي المختلفة،

منها:

(1) الملاحظة

(2) التجربة

(3) أشكال الاستنتاج العقلي: الاستقراء و الاستنباط من العام إلى الخاص و من الخاص إلى العام.

(4) الفرضيات

(5) التحليل و التركيب

(2) **المقولات:** هي انعكاس في فكرنا لأهم خواص و قانونيات العالم، فكل علم مقولاته، مثال: الفيزياء: الطاقة، الكتلة، المادة، الاقتصاد السياسي: السلعة، القيمة، العمل المجرد، العمل الحسي، الديالكتيك: النوعية، الكمية، الجوهر، الظاهرة...

إن مقولات الديالكتيك تتميز عن العلوم الأخرى بكونها تعكس أعم القوانين، و خواص ظواهر الطبيعية و المجتمع و التفكير.

إن المقولة مفهوم يتصف بعمومية أوسع بشكل كبير، مثال مقولة المادة: كل الأشياء و الظواهر الموجودة باستقلال عن الوعي.

(1) **مقولات الجوهر و الظاهرة:**

- **الجوهر:** هو الجانب الداخلي الثابت نسبيا من الواقع الموضوعي، هو الذي يحدد طبيعة الظاهرة المعطاة.

إن الإحساسات و الإدراكات تعكس (في صورة حسية) الظواهر و الأشياء المنفردة قبل كل شيء، أما الجوهر فهو غير متاح للإدراك الحسي المباشر، فلو كان الجوهر و الظاهرة متطابقان لكان العلم من الأمور الزائدة التي لا داعي لها، يقول ماركس: "إن مهمة العلم تقوم في الوصول بالحركة الظاهرة الطافية على سطح الظواهر إلى الحركة الداخلية الواقعية".
ما يطفو على السطح يكون متاحاً للأحاسيس، أما الجوهر فنصل إليه عبر التفكير.

إن الجوهر و الظاهرة مقولتان فلسفتان تعكسان الجوانب الكامنة بالضرورة في كل أشياء الواقع، و الجوهر هو الوحدة الكاملة لجميع المظاهر و الارتباطات الضرورية لشيء ما، إنه مجموع الصفات و العلاقات الأعمق و الأكثر استقراراً للشيء و التي تحدد أصله و طابعه و اتجاهات تطوره، أما الظاهرة فهي مجموع الصفات و العلاقات المتنوعة الخارجية و المتحركة للشيء و التي تتكشف مباشرة للحواس، و الجوهر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالظاهرة و هو يكشف عن مضمونه بنوع خاص في الظاهرة و من خلالها، و الظاهرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالجوهر و لا يمكن أن توجد بدونه.

يقول لينين "الجوهر يظهر و الظاهرة جوهرية"، و إن كانت الظاهرة أكثر ثراءً من الجوهر، فهي تعبر عنه و تضيف إليه سمات و مظاهر جديدة من الظروف الخارجية التي تحيط بالشيء، أما الجوهر فهو أكثر استقراراً و ثباتاً بالمقارنة بالظاهرة، و لكن هو الآخر يتغير و يتطور.

- **الظاهرة:** هي ذلك الجانب الخارجي من الواقع الموضوعي، و هو أكثر تحركاً و تغيراً، و يمكن اعتبار الظاهرة هي المظهر الحسي المحدد للجوهر، مثال: الدولة البورجوازية هي دكتاتورية كجوهر بينما مظاهرها متغيرة.

خلافاً للفكر المثالي (مثال الكانطية و غيرها)، لا يفصل الفكر المادي الديالكتيكي الجوهر عن الظاهرة، فلا وجود لمظاهر بدون جوهر، و العكس صحيح، هناك وحدة و صلة داخلية بين الجوهر و الظاهرة، يقول لينين "الجوهر يظهر و الظاهرة جوهرية (دفاتر فلسفية)، و معنى الجوهر يظهر، أنه ليس هناك جواهر محضة لا تتجلى في ظواهر، فكل جوهر يتجلى في عمليات و أحداث و علاقات حسية محددة، مثلاً جوهر الرأسمالية يتجلى في ظواهر مثل الأزمة الاقتصادية، البطالة، إفقار الكادحين... أما القول بأن الظاهرة جوهرية، يعني أنه في كل ظاهرة يتجلى جوهر، مثال الزبد هو تعبير عن جوهر أي مجرى عميق في أسفل النهر أو البحر.

- **وحدة الظاهرة و الجوهر و تباينهما:**

تشكل وحدة الظاهرة و الجوهر و تباينهما الأساس الموضوعي لوحدة الحسي و العقلي في المعرفة، الأساسي لضرورة حركة المعرفة من الحسي إلى العقلاني و من التجريبي إلى النظري.

مقولتان فلسفيتان تعنيان أن لكل شيء و ظاهرة خصائص كيفية معينة، و سمات جوهرية يكون مجملها مضمون هذا الشيء، مثلا، إن مضمون الكتاب هو ما يوجد فيه من أحداث و أناس و أفكار، أما الشكل فهو اللغة و الصور الفنية و الأوصاف التي يستخدمها المؤلف من أجل أن يعبر عن المضمون، و هكذا فلا بد لكل مضمون أن يرتدي شكلا، فبدون الشكل المطابق لا وجود له، و يستحيل أن يوجد، و هكذا ليس لكل شيء و لكل ظاهرة مضمون و حسب، بل شكل كذلك، إن الشكل هو تنظيم و تركيب المضمون الذي يجعل وجود المضمون ممكنا.

إذن فلكل ظاهرة و لكل شيء مضمون و شكل، و المضمون هو مجمل عناصر و جوانب العمليات و علاقاتها التي تشكل أساس وجود الشيء المعني و تشتط تطور أشكاله و تعاقبها، و الشكل هو أسلوب تنظيم و وجود المضمون، الصلة المختصة الداخلية بين عناصر و جوانب و عمليات المضمون، الصلة التي تضي على المضمون اكتمالا معيناً في التفاعل مع الظروف الخارجية، إن المضمون و الشكل يؤلفان جانبيين لا ينفصلان لجميع الأشياء و الظواهر في الواقع، فليس في العلم شيء ليس فيه مضمون و شكل. و لأن كل شيء يوجد في حالة تطور فإن المضمون لا يتوقف عند مستوى واحد بل يتطور، كما يتطور الشكل أيضا، غير انه أكثر ثباتا و أقل حركة، و هو يتخلف عن مضمونه. إن الشكل و المضمون

يشكل الجوهر و الظاهرة وحدة، فكما أنه لا يمكن أن توجد جواهر "خالصة" غير ظاهرة، لا يمكن أن تكون هناك ظواهر خالية من الجوهر، و تتضح وحدة الجوهر و الظاهرة أيضا في حقيقة أنهما يتحولان الواحد منهما إلى الآخر، فذلك الذي يكون في وقت من الأوقات جوهرًا، قد يصبح في وقت آخر ظاهرة و العكس صحيح، ذلك أن جوهر "أ" يترك المكان لجوهر "ب" أي لجوهر أعمق منه، و لكن وحدة الجوهر و الظاهرة متناقضة دائما، و الاثنان طرفان للتناقض، الجوهر هو العنصر الذي يحدد و الظاهرة هي العنصر الذي يتحدد.

(2) الوحيد و الخاص و العام:

ينطلق الديالكتيك من أن الوحيد و العام يتواجدان في صلة متبادلة، يقول لينين "فالخاص غير موجود إلا في العلاقة التي تؤدي إلى العام، و العام غير موجود إلا في الخاص عبر الخاص، بل الخاص له طابع العام، و كل عام هو جزء من الخاص، و كل عام لا يشمل جميع الأشياء الخاصة، و كل خاص لا يشترك تمام الاشتراك في العام...".

(3) المضمون و الشكل:

إن الضرورة و الصدفة ضدان دياكتيكيان يرتبطان ارتباطا متبادلا، و لا يوجد أحدهما دون الآخر، و بالنظر للوحدة المادية للعالم فإن لكل حدث سببه، كما أنه جزء من الرابطة السببية الكلية، و الضرورة تعبير عن هذه الرابطة التي يرجع الفضل إليها في أن الضرورة لا تنفصل عن الكلي و أنها كلية الوجود و تشكل رابطة مطلقة كلية، لا يمكن تصور أي ظاهرة بدون ضرورتها الداخلية و بدون متطلبات الصدفة الخارجية لها على السواء. إن المقولة الفلسفية "الضرورة" تدل على الصلة المتبادلة الدائمة بين الظاهرات، فالضرورة ليس ما قد يكون أو قد لا يكون، بل هي ما لابد أن يكون، لأنه ناتج عن أسباب عميقة، لذلك فهو ينبثق من الطبيعة الداخلية نفسها للظواهر.

و لكن هل توجد الصدف ؟

نأخذ مثال عن شخص تعرض لحادثة سيارة، فأدت الصدفة إلى وفاته، فلمذا نسمي مثل هذه الظواهر صدفا؟ يمكن للحادثة الصدفية أن تقع و لكن قد لا تقع أيضا، فهل كانت حادثة السيارة تؤدي بالضرورة إلى وفاة الشخص؟ كلا بالطبع، إن مثل هذه الحوادث لا يجوز تسميتها بالحوادث الضرورية. و بالتالي للإجابة على سؤال هل هذه الظاهرة أو تلك صدفة أم ضرورة ينبغي العودة إلى الأسباب التي تولدت عنها هل هي أسباب داخلية أم خارجية.

ضدان، و عندما يتطور هذا التضاد و يصبح تناقضا بين الشكل و المضمون، فإن هذا التناقض يتطلب وضع حد له.

عندما يظهر اختراع جديد فهو يولد في بادئ الأمر في الشكل القديم، مثال السيارة، فقد كانت السيارة الأولى نسخة طبق الأصل للعربة، لكن شكل السيارة القديم كان يعيق زيادة سرعة حركتها، إلى أن أخذت السيارة الشكل الانسيابي، هذا يبين أنه يأتي وقت يصبح فيه الشكل القديم عائقا في طريق تطور الكيفيات الجديدة للسيارة.

(4) الضرورة و الصدفة:

مقولتان فلسفيتان تعبران عن نمطين مختلفين من ارتباط الأشياء و الظواهر بعضها ببعض، و الضرورة هي رابطة داخلية هامة تنبع من الخصوصيات الجذرية للظواهر، و هي ما يجب أن يتم حتما في حال ظروف معينة، و الصدفة هي رابطة ذات طابع سطحي خارجي بالنسبة لظاهرة معينة، فهي نابعة من عوامل عرضية غير مرتبطة بجوهر هذه الظاهرة و هي ما يمكن أن يحدث أو لا يحدث في الظروف المعينة، ما يمكن أن يتم على نحو معين أو نحو آخر، لو كانت الصدفة مهيمنة في العالم لكان عشوائيا، و أيضا لو كانت الأشياء و الظواهر جميعها تتطور على نحو ضروري فقط لكان للتطور طابع غيبي وجبري.

(5) الواقع و الإمكان:

الإمكان إلى واقع إلا تحت ظروف معينة، و الظروف هي مجموع العوامل الضرورية لترجمة الإمكان إلى واقع، و هناك إمكانات حقيقية متولدة من المظاهر و الارتباطات الضرورية للواقع و الإمكانات الشكلية النابعة من الارتباطات و العلاقات العارضة، و الإمكانات المحددة من الإمكانات الحقيقية و تسمى محددة حين تكون الظروف المناسبة تجعلها تتخذ شكلا ماديا، قد ظهرت أو يمكن أن تظهر، و الإمكانات المجردة هي من الإمكانات الحقيقية، و تسمى مجردة إذا غابت الظروف المناسبة التي تجعلها تتخذ شكلا ماديا، و لتأخذ شكلا ماديا لا بد للظاهرة التي تحتويها من أن تمر بعدد من مراحل التطور.

مقولتان تعكسان التطور الديالكتيكي للعالم الموضوعي و المراحل و الفترات المختلفة لظهور و تطور الموضوعات.

إن الواقع هو ما يوجد فعلا، و الإمكان هو ما يحدث تحت ظروف مناسبة، و هي الخواص و الحالات و العمليات غير الموجودة، و لكنها يمكن أن تظهر تبعا لحقيقة أن الواقع يمتلك القدرة الحقيقية على أن يتغير من شيء إلى آخر، و إن أخذ الإمكان شكلا ماديا فإنه يصبح واقعا، و الواقع هو الإمكان في شكل مادي، و الإمكان هو الواقع الممكن، و لا يتحول

خلاصة

تتميز المادية الديالكتيكية عن جميع المفاهيم الفلسفية الأخرى بكونها نظاما عضويا يقوم على التعليل العلمي و الترابط المنطقي للقوانين و المقولات، إنها منهج و عقيدة تعكس بشكل دقيق التطور في الطبيعة و المجتمع و الفكر، إنها تظهر في آن واحد بوصفها نظرية التطور و بوصفها نظرية المعرفة و منطق التفكير النظري، و هي تسليح العلوم بطريقة موضوعية لتناول الظواهر التي تدرسها هذه العلوم.

إن كل مناضل ثوري إنما يجب عليه، ليس فقط أن يعرف كيف يستعمل مبادئ الديالكتيك الأساسية و قوانينه و مقولاته، بل أن يعرف كذلك كيف يبحث عن السبل الخلاقة لكشفها و إدراكها و تطبيقها في النشاط النظري و العملي المتعدد الجوانب، و المادية الديالكتيكية، تكشف فلسفيا مفهوم العالم للبروليتاريا و المستغلين و المضطهدين الذين يقفون في مواجهة العالم القائم من أجل تغييره جذريا، و لذلك فهي اتجاه فلسفي أبدي معارض

للاضطهاد الميتافيزيقي المحافظ ، مما يستوجب عند المناضلين الثوريين الماركسيين اللينينيين تطبيقها المستمر ضد كل المثاليات من أجل إعطاء الثأرين الحق في الثورة ، إعطاء الحق للماركسية الحقيقية ضد المزيفة ، للثوريين ضد التحريفيين و الإصلاحيين ، كما يقول ألان باديو في كتابه "نظرية التناقض" (ألان باديو ، ماسبيرو).

جميلة صابر

8 مارس 2016

النظرية المادية الجدلية للمعرفة

من خلال كراستي ماو:

"في الممارسة العملية" و "من أين تأتي الأفكار الصحيحة"

تقديم

إن القاعدة الأولى في الفلسفة المادية الماركسية، هي الاعتراف بالعالم الموضوعي وأشياءه وظواهره باعتبارها المادة العنصر الأول، والفكر العنصر الثانوي في الجواب على المسألة الرئيسية للفلسفة: علاقة المادة بالفكر كما حددها انجلز (انظر مقالة: "المادية الجدلية: مقدمات أولية" - جميلة صابر. مقالات الشرارة -).

وبالنسبة للسؤال الفرعي الذي يشتق من الموضوعة الأولى في الفكر المادي، حول قابلية أو عدم قابلية معرفتنا للواقع المادي، وخلافا للنظريات والفلسفات التي ادعت عدم قدرتنا على معرفة جوهر الأشياء (كانط، هيوم...) تجيب الماركسية بإمكانية ذلك وتقدم نظرية متكاملة لذلك.

لقد كانت الماركسية أول نظرية في التاريخ تؤسس علميا لمفهوم الثورة، من خلال السلاحين الثوريين، اللذان زودت بهما البروليتاريا والجماهير الكادحة: المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية. وبالفعل، قام ماركس وانجلز بمجهودات جبارة في هذا الصدد، وسار على دربهما لينين و ماو تسي تونغ اللذان ارتقيا بالديالكتيك المادي بمعناه الواسع (الديالكتيك، المنطق، نظرية المعرفة) إلى أعلى المستويات في احتكاك واسع مع علوم ومعارف عصرهما، حتى أصبحت النظرية الماركسية اللينينية الثورية تقوم على أساس صلب من الفلسفة المادية و الديالكتيك الثوري المادي، اللذان أصبحا يمثلان بجدارة الفلسفة المادية كعلم للثورة.

القاعدة الثانية للفلسفة المادية الماركسية، تقوم على: الاعتراف بالعالم الموضوعي وأشياءه وظواهره، باعتباره المصدر الوحيد للمعرفة الإنسانية، وتلك هي المسلمة الأساسية لنظرية المعرفة الماركسية المادية الديالكتيكية.

هكذا فالمعرفة من خلال هذا الطرح المادي الديالكتيكي، هي الانعكاس الفعال الهادف للعالم الموضوعي وقوانينه في ذهن الإنسان، وبطبيعة الحال فمصدرها هو العالم الخارجي المحيط بالإنسان. فهناك تأثير وتفاعل بين المحيط الموضوعي والنشاط الحيوي للذات العارفة (الإنسان) عبر الدور الفعال للممارسة الاجتماعية، فالعالم الموضوعي (الطبيعي والاجتماعي)، يساهم في إثارة الأحاسيس والتصورات والمفاهيم، من خلال احتكاك الإنسان بالظواهر الطبيعية أو غيرها، وللإنسان كذلك دور مؤثر بالمقابل، ولذلك قلنا في تعريفنا الأول أن المعرفة هي الانعكاس الفعال الهادف للعالم في ذهن الإنسان.

القاعدة الثالثة، تقوم على اعتبار الممارسة كنقطة انطلاق عملية المعرفة وأساسها، وعلى هذا الأساس:

- العالم الموضوعي هو موضوع المعرفة ومصدرها .

- المجتمع الإنساني هو الذات بالنسبة للمعرفة وحاملها، فهناك إذن طبيعة اجتماعية للمعرفة.

◀ هناك وحدة عضوية بين الإنسان والطبيعة، مصدر أحاسيسه وتصوراته ومفاهيمه من خلال ممارسته للإنتاج المادي من أجل تلبية حاجياته المادية، ذلك الإنتاج المادي الذي يتم خارج إرادته ضمن علاقات اجتماعية تسمح له باكتشاف ذاته واكتشاف الطبيعة.

هكذا، فمن وجهة نظر المادية الديالكتيكية، فالمعرفة هي العملية اللامتناهية لاقترب التفكير من الموضوع الجارية معرفته، والممارسة هي أساس المعرفة، فما هي الممارسة ؟

الممارسة هي النشاط الفعال للناس في تحويل الطبيعة والمجتمع، ضمن أنواع ثلاثة من الممارسة الاجتماعية وهي:

- الإنتاج المادي للحاجيات المادية لضمان استمرار الحياة.

- الصراع الطبقي (بالنسبة للمجتمعات الطبقيّة).

- التجربة العلمية.

1) سيرورة المعرفة: من التأمل الحي إلى التفكير المجرد

حسب لينين: "من التأمل الحي إلى التفكير المجرد و منه إلى الممارسة، هذا هو الطريق الديالكتيكي لمعرفة الواقع الموضوعي".

أ - المرحلة الأولى: المعرفة الحسية

❖ في البدء يطلع الإنسان على أشياء العالم الخارجي عن طريق الحواس الخمس، وهكذا وعبر التأمل المباشر في الأشياء، تبدأ المرحلة الأولى على طريق المعرفة (معرفة الألوان، الروائح، الأصوات، المذاق، سخونة أو برودة) هكذا يتشكل الإحساس الذي هو الشكل الرئيسي للمعرفة الحسية. فمن المعلوم أن لدى الجسم الإنساني جهاز فسيولوجي لتكوين الأحاسيس يتكون من أعضاء الحواس ومن الألياف العصبية، التي تتم من خلالها عملية نقل الاستثارة إلى أجزاء المخ الإنساني المختصة، مثلما تنقل الكهرباء من خلال الأسلاك، ثم أجزاء المخ التي يتم فيها تحويل الاستثارة

فمن خلال تحويل الطبيعة، أو تغيير المجتمع وخلق أشياء جديدة، فالممارسة هي نقطة انطلاق المعرفة وأساسها، فمسار تطور المعرفة الإنسانية والممارسة الاجتماعية مرتبطان دياكتيكيًا، والماركسية نفسها هي نتاج الصراع الطبقي البروليتاري، بعدما تراكمت عناصر تجربته التاريخية لتتولد عندها الماركسية، التي جعلت من الممارسة هدفًا للمعرفة، من أجل استخدام تلك المعرفة لتحقيق الأهداف.

القاعدة الرابعة، يتمثل أساسها في اعتبار الوحدة بين النظرية والممارسة، المبدأ الأعلى للماركسية اللينينية.

إن المعرفة هي أحد أشكال نشاط الناس: نشاطهم النظري، لكنها تظل عاجزة عن تغيير الواقع بدون الاعتماد على الممارسة. فالنظرية تعكس العالم، تعمم الخبرة البشرية العملية، لكن النظرية دون الممارسة فهي عديمة المعنى، كما أن الممارسة دون النظرية فهي عمياء، ذلك أن النظرية تهدي الممارسة إلى الطريق الصحيح و تشير إلى أكفأ الوسائل لتحقيق الأهداف العملية. فالماركسية اللينينية تعميم لنضال البروليتاريا ولممارستها الثورية، فهي انعكاس للواقع، وعلى هذا الأساس فهي مرشد لنضال البروليتاريا من أجل الاشتراكية والشيوعية.

ب - المرحلة الثانية: المعرفة المنطقية

◀ عندما نستعمل مصباحاً كهربائياً، نستطيع معرفته عبر حواسنا ، فهو مصباح كهربائي ، وبهذا المعنى يوقد أو يطفأ ، لأنه يشتغل بالطاقة الكهربائية ، لكن ما هي هذه الطاقة الكهربائية ؟ فهذا لا نستطيع معرفته بالحواس ، لأننا مع المعرفة الحسية لا نستطيع الكشف عن الطبيعة الداخلية للأشياء ، عن جوهرها ، أي قوانين تطورها ، فالكهرباء تيار من الإلكترونات تتحرك بسرعة معينة ، إنها سرعة الضوء .

إن معرفة قوانين وجوهر الأشياء ، أي دور التفكير المنطقي ، هي وحدها التي ترشد الناس في نشاطهم العملي ، فالمعرفة المنطقية ، مرحلة كيفية أرقى في تطور المعرفة ، وبشكل المفهوم الشكل الرئيسي للتفكير المنطقي ، أي أنه يعكس ما هو جوهري وعام في الشيء أو الظاهرة ، فهو مثلاً يتغاضى عن السمات الثانوية ، فنحن حين نقول بمفهوم الإنسان ، فإننا نعرف ما هو عام وما هو جوهري في كل إنسان ، وهو الحال حين نتكلم عن طبقة اجتماعية أو عن حيوان أو عن مجتمع ... والممارسة الاجتماعية للإنسان هي أساس ظهور المفاهيم ، وعبر المعرفة المنطقية ، تقوم المعرفة الإنسانية

إلى أحاسيس معينة ، مثال صوت محدد الذي تلتقطه الأذن ليتحول إلى إحساس بالصوت ، أو كمثال الضوء الذي تلتقطه العين ليتحول إلى إحساس بالضوء .

◀ إن الأمثلة أعلاه تتعلق بإحساس منفرد .

لكن المفهوم أوسع من ذلك ، ذلك أن الإحساس بالمعنى الواسع للكلمة ، باعتباره عمل إحساسي لجميع الناس في سياق نشاطهم الاجتماعي التطبيقي والتحويلي ، هو وحده الذي يمكن أن يكون مصدراً لجميع المعارف وللمعرفة ككل .

فلا اعتبارات نفسية أو لسجاي شخصية محددة لشخص محدد ، أو لظروف اجتماعية ، أو بيئة اجتماعية ، قد نجد شخصان أمام تأثيرات خارجية نفسها ، لكن لكل منهما إدراك مختلف ، إلا أننا عن طريق المراجعة ، أي استعمال الحواس المختلفة والأدوات والخبرات العملية نتوصل إلى فكرة صحيحة عن الأشياء .

إن للإحساس طابع اجتماعي عام ، ولا يقوم فقط على الإحساس الفردي بل يتعداه إلى آخر اجتماعي ، يضم معنى ومفهوماً واسعاً .

تعطي الإنسان صورة حقيقية عن العالم) وعن العقلانية المثالية (العقل، التفكير المجرد، المصدر الوحيد للمعرفة الحقة).

في النظرية الديالكتيكية للمعرفة، لا يتم التوقف عند مرحلة المعرفة المنطقية، بل يتم توجيه سهام المعرفة المكتسبة منطقياً إلى الممارسة العملية، للتأكد من صحة معارفنا، وبذلك يتم تصحيحها، أو تدقيقها وتعميقها باستمرار، فمن المعرفة الحسية إلى المعرفة المنطقية، ومن هاته الأخيرة إلى الممارسة العملية، وهكذا دواليك وباستمرار، فالمعرفة لا نهائية، كما العالم المادي والطبيعة، فمن الظاهرة إلى الجوهر الذي هو طريق العلم، وإلا لما كان هناك علم، ومن الجوهر 1 إلى الجوهر 2 فالجوهر 3، وهكذا فليس هناك شيء غير قابل للتقسيم كما يقول ماو تسي تونغ.

(2) بصدد كراسة "في الممارسة العملية":

تنتمي كراسة "في الممارسة العملية"، إلى تلك السلسلة من العروض التي قدمها الرفيق ماو تسي تونغ، في منتصف ثلاثينات القرن 20، في الكلية

بقفزة نوعية من الحسي إلى المجرد، قفزة ديالكتيكية في عملية المعرفة من الأدنى إلى الأعلى خلال الممارسة، فالنشاط العملي للناس وحده الذي يهدف إلى تحويل الأشياء وظواهر العالم، مما يجعل في الإمكان التغلغل في معرفة جوهرها، ومن تم التفريق بين المهم وبين الثانوي، بين الداخلي والخارجي، وعلى هذا الأساس تبنى المفاهيم. فكلما كانت درجة تطور الممارسة أرقى، وكلما كانت قوتها التحويلية أشد، كلما كانت معرفة الإنسان أعمق وأكثر تنوعاً، ولذلك تتميز المفاهيم بحركة ومرونة، مرتبطان بتغير العالم والممارسة بما يعني تعميق المفاهيم القائمة وخلق أخرى جديدة. ولذلك فإن الماركسية اللينينية تعادي كلا من التجريبية (أي رفض النظرية) والدوغمائية (أي تقديس النصوص وعزلها عن الممارسة العملية).

◀ تقوم النظرية المادية الديالكتيكية، على أساس التأكيد على الوحدة العضوية بين الحسي والمنطقي في سيرورة المعرفة، فكلاهما، المعرفة الحسية أو المعرفة المنطقية (التفكير المجرد) انعكاس لنفس العالم المادي، ويقومان على أساس مشترك ونشاط البشر العملي، ففي كلتا الحالتين هناك جهاز فسيولوجي واحد: الجهاز العصبي للإنسان، ويستحيل التجريد بدون الحسي ولا تتقدم الممارسة العملية بدون المنطقي (المعرفة، النظرية) وهذا ما يميز الماركسية عن التجريبية (المعرفة الحسية وحدها

قدم ماو تسي تونغ من خلال عرضه في كراسة "في الممارسة العملية"، مجموعة من الأطروحات المؤسسة للنظرية المادية الجدلية للمعرفة:

أ- الأطروحة الأولى: النشاط في الإنتاج هو أهم النشاطات العملية للإنسان

يسترجع هنا ماوتسي تونغ النقد الثوري المادي الجدلي للمادية ما قبل الماركسية، خاصة في موضوع المعرفة، حيث كانت تلك المادية تنظر إليها بمعزل عن طبيعة الإنسان الاجتماعية، وكذا تطوره التاريخي، وبذلك، كانت عاجزة عن إدراك تبعية المعرفة للممارسة الاجتماعية، أي تبعية المعرفة للإنتاج والصراع الطبقي (كانت حسب انجلز مادية من تحت ومثالية من فوق).

والماركسية حسب ماو تسي تونغ، تعتبر أن نشاط الإنسان في الإنتاج تشكل أهم نشاطاته الأساسية، ويقرر نشاطاته الأخرى، ولذلك أهمية قصوى من حيث النتائج، وهي أربعة أساسية، فحسب ماو: " فالإنسان بالاعتماد بصورة رئيسية على نشاطه في الإنتاج المادي، يتفهم تدريجيا

الحربية والسياسية المناهضة لليابان في يانآن، وقد شكلت هذه الكراسة، إلى جانب شقيقتها "في التناقض" وثيقتان حاسمتان في حقل الصراع من داخل الحزب الشيوعي الصيني آنذاك، ضد نزعة الجمود العقائدي والنزعة التجريبية، على طريق بناء خط ثوري ماركسي لينيني للثورة الصينية، وبالفعل، لقد كان داخل الحزب العديد من أطره ومناضليه من ذوي نزعة الجمود العقائدي، أو ذوي النزعة التجريبية، وقد تسبب هؤلاء وأولئك، وقد احتل بعضهم مراكز قيادية داخل الحزب، في خسائر جسيمة للثورة الصينية، خلال أعوام 1931 - 1934، حيث استطاعوا تضليل الكثير من رفاق الحزب، خاصة وقد كانوا يرتدون معطف الماركسية.

وللتصدي لهاتين النزعتين المنحرفتين، ذات النظرة الذاتية، ومن أجل فضحهما، كان على ماو تسي تونغ، أن يقدم عرضا وافيا وواضحا حول وجهة نظرة الماركسية في المعرفة، وعموما شكلت هذه الفترة، محطة حاسمة في تاريخ الحزب الشيوعي الصيني، من أجل بلورة خط الجماهير على قاعدة النقد والنقد الذاتي، الفردي والجماعي، والتقويم الذي انخرط فيه الحزب على أوسع نطاق، و به اكتسب الطريق الصحيح لإنجاح الثورة الصينية.

ويؤكد ماو على أهمية الصراع الطبقي، كأحد أشكال الممارسة الاجتماعية، وذلك من خلال الأثر العميق الذي يتركه في تطور المعرفة البشرية.

يقول ماو: "في المجتمع الطبقي يعيش كل إنسان كفرد من أفراد طبقة معينة، ويحمل كل نوع من أنواع التفكير دون استثناء طابع طبقة معينة"

ب - الأطروحة الثانية: حول تطور وتاريخية المعرفة

تعتبر الماركسية أن النشاط الإنتاجي في المجتمع البشري يتطور خطوة خطوة، من مرتبة دنيا إلى مرتبة عليا، وعليه، فمعرفة الإنسان، بالطبيعة أو بالمجتمع، تتطور أيضا خطوة خطوة من مرتبة دنيا إلى مرتبة عليا، أي من معرفة سطحية إلى معرفة عميقة، ومن معرفة وحيدة الجانب إلى معرفة متعددة الجوانب (نلاحظ هنا، التطبيق المنهجي للمقولات الفلسفية المادية الديالكتيكية على مجال المعرفة). (للمزيد من التدقيق انظر مقالة "حول المادية الجدلية - مقدمات أولية" - جميلة صابر - مقالات الشرارة -).

ظواهر الطبيعة وخصائصها، والقوانين التي تتحكم فيها، والعلاقة بين الإنسان وبين الطبيعة، وكذلك يتفهم تدريجيا، وعلى درجات متفاوتة عن طريق نشاطه، ما يربط بين الإنسان والإنسان من علاقات معينة. ولا يمكنه الحصول على أي معرفة من هذه المعارف بمعزل عن النشاط في الإنتاج."

ويوضح ماو معنى الممارسة العملية التي يباشرها الإنسان في المجتمع، ليحدد لنا أشكال النشاط الاجتماعي وهي ثلاثة:

1 - النشاط الإنتاجي 2 - الصراع الطبقي والحياة السياسية 3 - النشاطات العلمية والفنية.

وتشكل عموما هذه الأشكال مجالات الحياة الواقعية في المجتمع التي يساهم فيها الإنسان جميعا باعتباره كائنا اجتماعيا.

وبهذا يتوصل الإنسان، وبدرجات متفاوتة إلى معرفة العلاقات المختلفة بين الناس، ليس فقط من خلال حياته المادية فحسب، بل من خلال حياته السياسية والثقافية، وهاتان الأخيرتان مرتبطتان ارتباطا وثيقا بالحياة المادية.

وبطبيعة الحال ، وخلال مرحلة طويلة من التاريخ ، لم يكن ممكنا لمعرفة الناس بتاريخ المجتمع أن تتعدى حد المعرفة الوحيدة الجانب ، وذلك لسببين اثنين وهما:

1 — تعصب الطبقات المستغلة (بكسر الغين) التي تشوه تاريخ المجتمع .

2 — النطاق الضيق للإنتاج ومستوى قوى الإنتاج ، الذي كان يحد من آفاق الناس .

ولم يتسن لهم ذلك ، أي الحصول على فهم تاريخي متكامل لتطور تاريخ المجتمع ، ويستطيعوا تحويل معرفتهم بالمجتمع إلى علم ، أي علم الماركسية ، إلا بعد ظهور البروليتاريا الحديثة ، مع ظهور القوى المنتجة الجبارة أي الصناعات الكبرى .

ج - الأطروحة الثالثة: الممارسة العملية هي المقياس أو المعيار لتحديد حقيقة المعرفة

لا تثبت صحة معرفة الإنسان إلا عندما يتوصل ، من خلال ممارسته العملية الاجتماعية (الإنتاج المادي ، الصراع الطبقي ، التجربة العلمية) ، إلى إحراز النتائج المنشودة ، ولتحقيق ذلك ، فعلى الإنسان ان يجعل افكاره متفقة مع قوانين العالم الخارجي الموضوعي ، وإذا لم يحقق ذلك فلا بد أن يفشل في الممارسة العملية ويقول ماو في هذا الصدد: "وإذا فشل فإنه سوف يستخلص الدروس من فشله ويصحح أفكاره ويجعلها متفقة مع قوانين العالم الخارجي ، وعندئذ يستطيع تحويل فشله إلى ظفر ، وهذا هو المقصود من قولهم : "الفشل أم النجاح" وقولهم "كل عثرة تزيد الإنسان فطنة" .

ويلخص ماو هاته الأطروحة بما يلي: "إن النظرية المادية الديالكتيكية عن المعرفة ، تضع الممارسة العملية في المقام الأول ، إذ تعتبر أن معرفة الإنسان ، لا يمكن أن تنفصل إطلاقا عن الممارسة العملية ، وتنبذ كل النظريات الخاطئة التي تنكر أهمية الممارسة العملية ، وتفصل المعرفة عن الممارسة العملية. هكذا قال لينين : "إن الممارسة العملية أعلى من المعرفة (النظرية) ، لأنها لاتمتاز بصفة الشمول فحسب ، بل تمتاز كذلك بصفة الواقع المباشر". (لينين "ملخص علم المنطق لهيجل") . ويؤكد ماو على الميزة الطبقيّة للمادية الديالكتيكية ، وعلى صفتها العملية ، ويقول ماو في هذا الصدد: "إن للمادية الديالكتيكية — الفلسفة الماركسية — ميزتين

ويعني هذا أن الإنسان لا يرى في بداية عملية الممارسة العملية سوى ظواهر الأشياء وجزئياتها والروابط الخارجية التي تربط بينها، بما يعني أنها تترك أثرا في حواس الإنسان، وتترك له في ذهنه انطباعات عديدة وصورا عامة عن الروابط الخارجية من هذه الانطباعات، ولذلك عدت المرحلة الأولى من المعرفة، فلا يستطيع الإنسان بعد في هذه المرحلة تكوين مفاهيم عميقة ولا نتائج منطقية.

- المرحلة المنطقية من المعرفة: من الإحساس إلى المفهوم

باستمرار الممارسة العملية الاجتماعية، تتكرر الأشياء التي تترك أحاسيس وانطباعات في حواس الإنسان، وعندئذ يحدث في ذهن الإنسان تبدل مفاجئ (قفزة) في عملية المعرفة، وتتكون المفاهيم. فالمفاهيم لم تعد ظواهر الأشياء ولا جزئياتها ولا الروابط الخارجية التي تربط بينها، بل هي إدراك تام لجوهر الأشياء وكمياتها وروابطها الداخلية. إن المفهوم والإحساس لا يختلفان كميا فحسب بل كيفيا أيضا.

يقول ماو: "إن مرحلة تكوين المفاهيم والحكم والاستدلال، هي مرحلة أكثر أهمية في كل عملية المعرفة البشرية لشيء ما، وهي مرحلة المعرفة العقلية. إن المهمة الحقيقية للمعرفة تكمن في التقدم إلى التفكير عن طريق

بارزتين: أولهما صفتها التطبيقية، فهي تعلن بصراحة أن المادية الديالكتيكية في خدمة البروليتاريا، و الثانية صفتها العملية، فهي تؤكد عل تبعية النظرية للممارسة العملية، حيث أن النظرية تقوم على أساس الممارسة العملية، ثم تعود لخدمة الممارسة العملية، إن ما يستند إليه المرء لكي يحكم بأن المعرفة أو النظرية، حقيقة أو لا، ليس هو الأحاسيس الذاتية، بل هو النتائج الموضوعية للممارسة العملية الاجتماعية، فالمقياس الوحيد لمعرفة الحقيقة هي الممارسة العملية الاجتماعية. إن وجهة نظر الممارسة العملية، هي وجهة النظر الأولية والأساسية في النظرية المادية الديالكتيكية عن المعرفة.

وبطبيعة الحال يطرح السؤال: كيف تنبثق المعرفة البشرية عن الممارسة العملية؟ ثم تعود لتخدم الممارسة العملية؟.

د - الأطروحة الرابعة: سيرورة المعرفة ومراحلها:

- المرحلة الحسية من المعرفة: مرحلة الإحساسات والانطباعات

ممارستنا العملية تثبت أن ما نحسه لا يمكن أن ندركه على الفور، وأن ما ندركه هو وحده الذي يمكن أن نحسه بصورة أعمق. إن الإحساس لا يحل سوى مسألة الظواهر، والنظرية وحدها تستطيع حل مسألة الجوهر. بيد أن هاتين المسألتين لا يمكن حلها بأي حال من الأحوال بمعزل عن الممارسة العملية".

يقول ماو: "إذا أراد أي شخص أن يفهم أي شيء من الأشياء، فليس له من سبيل إلى ذلك سوى الاحتكاك بهذا الشيء، أي العيش (الممارسة العملية) في محيطه".

ويقول في مكان آخر: "إذا استثنينا شرط العبقرية، فإن السبب الرئيسي في قدرة ماركس وانجلز و لينين وستالين على صياغة نظرياتهم، يعود إلى مساهمتهم شخصيا في ممارسة الصراع الطبقي والتجربة العلمية في زمنهم".

وعليه، "إذا ما أردت أن تعرف بصورة مباشرة شيئا من الأشياء، أو عدة أشياء فلا بد لك أن تساهم شخصيا في النضال العملي، الذي يهدف إلى تغيير الواقع — تغيير ذلك الشيء أو تلك الأشياء-، وعندئذ تستطيع أن تحتك بظواهر ذلك الشيء أو تلك الأشياء، كما أنك لا تستطيع أن تكشف وتفهم جوهر ذلك الشيء أو تلك الأشياء إلا عن طريقة المساهمة الشخصية

الإحساس وإلى الإدراك التدريجي للتناقضات الكامنة في داخل الأشياء الموضوعية ولقوانينها والروابط الداخلية التي تربط بين عملية وأخرى، أي التوصل إلى المعرفة المنطقية. دعوني أكرر: إن السبب في اختلاف المعرفة المنطقية عن المعرفة الحسية يعود إلى أن المعرفة الحسية تتعلق بجزئيات الأشياء وظواهرها وروابطها الخارجية، في حين أن المعرفة المنطقية تتقدم بالمعرفة الحسية خطوة كبيرة إلى الأمام، فتتوصل إلى إدراك كليات الأشياء وجوهرها وروابطها الداخلية، وتكتشف التناقضات الكامنة في العالم الخارجي، وبهذا فإن المعرفة المنطقية تتمكن من تفهم تطور العالم الخارجي في مجموعه وفي الروابط الداخلية بين جميع جوانبه".

ه - الأطروحة الخامسة: في وحدة المعرفة الحسية والمعرفة المنطقية

تنظر الماركسية — اللينينية إلى كل من مرحلتين عملية المعرفة، بعد تحديد خصائصهما، باعتبارهما مرحلة في عملية واحدة من المعرفة، يقول ماو: "إن الإحساس والعقل يختلفان من حيث الطبيعة، ولكن لا ينفصل أحدهما عن الآخر، إنهما موحدان على أساس الممارسة العملية. إن

الموضوعي بواسطة حواسه، ومن ينكر الإحساس، ينكر التجربة المباشرة، وينكر المساهمة الشخصية في الممارسة العملية الرامية إلى تغيير الواقع فهو ليس بمادي".

وخلاصة القول نجد الخطوة الأولى في عملية المعرفة هي الاحتكاك بالأشياء الموجودة في العالم الخارجي وهي ما يسمى بمرحلة الإحساس، والخطوة الثانية التي تعنى بتجميع المعطيات الصحيحة وترتيبها وصهرها، وهذه هي مرحلة تكوين المفاهيم والحكم والاستدلال. ولا يمكن تكوين مفاهيم صائبة والتوصل إلى منطق سليم على أساس المعطيات الصحيحة، إلا إذا كانت هذه المعطيات غنية جدا أي غير جزئية وناقصة، ومتفقة مع الواقع، أي ليست وهمية وكاذبة.

إن من يحسب أنه يمكن للمعرفة العقلية ألا تنبع من المعرفة الحسية فهو مثالي، إن المعرفة تبدأ مع التجربة، وهذه هي المادية حول نظرية المعرفة.

و - الأطروحة السادسة: الوحدة بين المعرفة الحسية والمعرفة المنطقية والحاجة إلى الطفرة النوعية

في النضال العملي الذي يهدف إلى تغيير الواقع. هذه هي طريق المعرفة التي يسلكها كل امرئ بالفعل، غير أن بعض الناس يزعمون عكس ذلك عامدين إلى تشويه الأمور. وأكثر الناس مدعاة للسخرية هو "العالم" الذي ما أن يلتقط فتاتا من المعرفة عن طريق السماع حتى يعتبر نفسه "العلامة الفريد في العالم"، وهو أمر لا يدل إلا على عجزه عن تقدير نفسه تقديرا صحيحا. إن المعرفة هي مسألة علم، فلا يجوز أن يصاحبها أدنى شيء من الكذب والغرور، بل المطلوب هو العكس بكل تأكيد، أي الصدق والتواضع".

ويقول ماو: "إذا أردت أن تعرف نظرية الثورة وطرائقها، فلا بد أن تشترك في الثورة".

وبعد التفريق بين المعرفة المباشرة وغير المباشرة والتأكيد على وحدتهما، يقول ماو: "وهكذا فإن معرفة الإنسان لا تعدو أن تكون هذين القسمين: التجربة المباشرة والتجربة غير المباشرة. وفضلا عن ذلك فإن ما هو تجربة غير مباشرة عند شخص معين، هو عند غيره تجربة مباشرة. وهكذا فإن المعرفة من أي نوع كانت، إذا اعتبرنا المعرفة ككل، لا يمكن أن تنفصل عن التجربة المباشرة. إن كل معرفة هي تنبع من إحساس الإنسان بالعالم

الاتجاه الواضح والنظرة البعيدة المدى، ويرتضون النجاحات الوقتية والنظرات الضيقة. وإذا قام أمثال هؤلاء بتوجيه الثورة، فسيقودونها إلى زقاق مسدود. إن المعرفة العقلية تعتمد على المعرفة الحسية، والمعرفة الحسية في حاجة إلى التطور إلى معرفة عقلية، هذه هي النظرية المادية الديالكتيكية للمعرفة.

ز - الأطروحة السابعة: استمرار سيرورة المعرفة وأهمية النظرية الثورية

لا تتوقف المعرفة عند الحد الذي سطرناه أعلاه، ذلك أننا عند التوقف عند المرحلة العقلية، فإننا لم نتناول من المشكلة إلا نصفها، وبالنسبة للفلسفة الماركسية، فإننا لم نتناول إلا ذلك النصف الذي لا يتمتع بأهمية عظمى. يقول ماو: "إن الفلسفة الماركسية تعتبر أن المسألة البالغة الأهمية ليست في معرفة قوانين العالم الموضوعي، وبالتالي في اكتساب القدرة على تفسيره، بل هي في استخدام هذه المعرفة في تغيير العالم بصورة فعالة. فالنظرية من وجهة نظر الماركسية هي مهمة، وتتجلى أهميتها في قول لينين: "لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية". ويلخص ما و الأطروحة كاملة

تحتاج المعرفة إلى التعمق، وهذا يعني التطور من المرحلة الحسية إلى المرحلة العقلية. فالتوقف عند المرحلة الحسية، وهي مرحلة دنيا، فهذا يعني تكرار لأخطاء "المذهب التجريبي"، ويعني هذا كذلك التوقف في مرحلة المعطيات الجزئية والسطحية، التي لا تعكس الأشياء بصفة كاملة. يقول ماو: "لكي يعكس شيء بكامله، ويعكس جوهره وقوانينه الباطنية، لابد من صهر تلك المعطيات الحسية الغنية عن طريق التفكير باستبعاد ما هو قليل الأهمية منها واستخلاص ما هو عظيم النفع، ونبد الكاذب منها، وإبقاء الصحيح المعتمد عليه، ثم الربط بين هذه المعطيات والنفاد من ظواهر الأشياء إلى دواخلها وخفاياها، وذلك من أجل تكوين مفاهيم ونظريات في شكل منسق، أي لابد من تحقيق قفزة من المعرفة الحسية إلى المعرفة العقلية. وأن هذه المعرفة التي تم صهرها لم تصبح معرفة أكثر بعدا عن الواقع، وأقل أهلية لأن يركن إليها، بل هي على نقيض ذلك، إذ أن كل ما تم صهره خلال عملية المعرفة بصورة علمية، وعلى أساس الممارسة العملية، هو كما قال لينين، يعكس الواقع الموضوعي بصورة أعمق وأصدق وأكمل. أما أصحاب العمل الروتيني الضيقي التفكير فهم يتصرفون عكس ذلك، إذ أنهم يقدسون التجربة بينما يحتقرون النظرية، ونتيجة لهذا، يعجزون عن إدراك العملية الموضوعية ككل، فيفتقرون إلى

الأولية والأساسية في نظرية المعرفة". لقد أصاب ستالين عندما قال: "إن النظرية تصبح عديمة الهدف إذا لم ترتبط بالممارسة العملية الثورية، وكذلك شأن الممارسة العملية فإنها ستصبح ممارسة على غير هدى، إذا لم تتر طريقها نظرية ثورية".

ويستخلص ماو من كل ذلك مسألة أساسية، مفادها أن "كل عملية، سواء كانت في الطبيعة أم في المجتمع تتقدم وتتطور بفعل تناقضاتها الداخلية، والصراعات الناتجة عنها، ولا بد لحركة المعرفة البشرية أن تتقدم وتتطور أيضا وفقا لذلك. وفيما يتعلق بالحركات الاجتماعية، فإنه يجب على القادة الثوريين الحقيقيين أن يحسنوا تصحيح أفكارهم، ونظرياتهم وخططهم ومشاريعهم حين تبرز فيها الأخطاء". بيد أنه في كثير من الأحيان، يتخلف التفكير عن الواقع والسبب في ذلك يعود إلى أن معرفة الإنسان مقيدة بظروف اجتماعية عديدة، يقول ماو: "إننا نعارض المتعنتين في صفوف الثورة، إذ أن تفكيرهم يعجز عن مجاراة تغيرات الظروف الموضوعية، فأظهروا أنفسهم تاريخيا في صورة الانتهازية اليمينية. إن هؤلاء الناس لا يدركون أن صراع التناقضات قد دفع العملية الموضوعية إلى الأمام، وبقيت معرفتهم في مرحلتها القديمة. هذه هي الخاصية الملائمة لتفكير جميع المتعنتين. وبما أن تفكيرهم ينفصل عن الممارسة العملية الاجتماعية، فلا

فيما يلي: "إن المعرفة تبدأ من الممارسة العملية، والمعرفة النظرية التي يتم اكتسابها عن طريق الممارسة العملية، يجب أن تعاد إلى الممارسة العملية مرة أخرى، إن الدور الفعال للمعرفة، لا يتجلى في القفزة الفعالة من المعرفة الحسية إلى المعرفة العقلية فحسب، بل ينبغي أن يتجلى أيضا — وهذا أكثر أهمية — في القفزة من المعرفة العقلية إلى الممارسة العملية الثورية. إن المعرفة التي تمكنا من استيعاب قوانين العالم يجب أن تعاد لتطبق في ممارسة الإنتاج، وفي ممارسة الصراع الطبقي الثوري والنضال الوطني الثوري، وكذلك في ممارسة التجارب العملية. هذه هي عملية اختبار النظرية وتطويرها، هي تكملة لعملية المعرفة. إن مسألة إذا كانت نظرية ما منطبقة مع الحقائق الموضوعية أو لا، لم تحل تماما، ولا يمكن أن تحل تماما، أثناء حركة تطور المعرفة، من المرحلة الحسية إلى المرحلة العقلية، التي تحدثنا عنها آنفا".

ويعني هذا أن الطريقة الوحيدة لحل المسألة حلا تاما، هي إعادة المعرفة العقلية إلى الممارسة العملية الاجتماعية، وتطبيق النظرية على الممارسة العملية، لمعرفة ما إذا كانت هذه النظرية توصلنا إلى الهدف المنشود. ولهذا السبب بالذات يقول ماو: "أن الممارسة العملية هي مقياس الحقيقة، وأن "وجهة نظرة الحياة والممارسة العملية يجب أن تكون وجهة النظر

نفسه تغيير عالمهم الذاتي، تغيير مقدرتهم على اكتساب المعرفة وتغيير العلاقات بين العالم الذاتي والعالم الموضوعي".

وأخيرا، يقوم ماو بتلخيص مجموع كراسته بطريقة تستحق أن يستحضرها أمامه كل مناضل جاعلا منها شعارا موجها لخطواته النضالية، يقول ماو :

"اكتشاف الحقيقة عن طريق الممارسة العملية، وإثبات تطوير الحقيقة عن طريق الممارسة العملية مرة ثانية. الانطلاق من المعرفة الحسية وتطويرها بصورة فعالة إلى المعرفة العقلية، ثم الانطلاق من المعرفة العقلية لتوجيه الممارسة العملية الثورية بصورة فعالة، في سبيل تغيير العالم الذاتي والعالم الموضوعي. الممارسة العملية، ثم المعرفة، والعودة إلى الممارسة العملية ثانية، ثم المعرفة أيضا، وهكذا تتكرر العملية إلى ما لا نهاية، ومع كل دورة يرتفع مضمون الممارسة العملية والمعرفة إلى مستوى أعلى. هذه هي النظرية المادية الديالكتيكية للمعرفة، وهذه هي النظرية المادية الديالكتيكية لوحدة المعرفة والعمل".

يمكنهم أن يتقدموا ليقودوا عجلة المجتمع، فكل ما يمكنهم عمله هو أن يتخلفوا وراء العجلة متذمرين من سرعتها الفائقة، ومحاولين جرّها إلى الوراء أو تحويلها في الاتجاه المعاكس. ونحن نعارض كذلك ثثرة "اليساريين" الفارغة. إذ أن تفكيرهم يتخطى المرحلة المعينة من مراحل تطور العملية الموضوعية، فيحسب بعضهم الأوهام التي يحملونها كأنها حقائق، وآخرون منهم يتكلفون في الوقت الحاضر بتحقيق مثل أعلى لا يمكن أن يتحقق إلا في المستقبل، منعزلين عن الممارسة العملية الراهنة التي تباشرها غالبية الناس وعن الواقع الحالي، ويتجسد تفكيرهم هذا عمليا في صورة المغامرة. إن المثالية والمادية الميكانيكية والانتهازية والمغامرة تتميز جميعها بفصل التفكير الذاتي عن الواقع الموضوعي، وفصل المعرفة عن الممارسة العملية. فلا يسع النظرية الماركسية - اللينينية للمعرفة، التي تتميز بالممارسة الاجتماعية العلمية، إلا أن تعارض هذه الإيديولوجيات الخاطئة معارضة حازمة".

يقول ماو مرة أخرى، بعد التأكيد على أهمية الوحدة التاريخية المحددة بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي، بين النظرية والممارسة العملية، بين المعرفة والعمل، قوله : "إن نضال البروليتاريا والشعوب الثورية من أجل تغيير العالم يتضمن إنجاز المهمات التالية: تغيير العالم الموضوعي وفي الوقت

الأفكار السديدة التي تتميز بها طبقة متقدمة ، حتى تتحول هذه الأفكار إلى قوة مادية تغير المجتمع وتغير العالم.

يقوم ماو بالتعريف بالمرحلة الأولى للمعرفة (المرحلة الحسية) ويسميتها مرحلة الانتقال من المادة الموضوعية إلى الوعي الذاتي، من الوجود إلى الفكر، ثم يتحدث عن المرحلة الثانية (المعرفة العقلية) ويسميتها مرحلة الانتقال من الوعي إلى المادة ثانية، من الفكر إلى الوجود، حيث توضع المعرفة على محك الممارسة الاجتماعية للتأكد من صحتها.

يقول ماو: "إن التوصل إلى معرفة سديدة لا يتم في الغالب، إلا بعد التكرار المتعدد لعملية الانتقال من المادة إلى الوعي، ثم من الوعي إلى المادة ثانية، أي من الممارسة العملية إلى المعرفة، ثم من المعرفة إلى الممارسة العملية مرة ثانية. تلك هي النظرية الماركسية للمعرفة، النظرية المادية الديالكتيكية للمعرفة".

خلاصة القول، يؤكد ماو في هذه الكراسة، بعد تركيزه للمقولات الأساسية في كراسة "في الممارسة العملية"، على ضرورة إدراك أن المادة يمكن أن تتحول إلى وعي، وأن الوعي يمكن أن يتحول إلى مادة، ولذلك طالب بضرورة تثقيف رفاق الحزب بالنظرية المادية الديالكتيكية للمعرفة، لكي

3- بصدد كراسة "من أين تأتي الأفكار السديدة؟"

لا تنتمي هذه الكراسة إلى الفترة التاريخية التي صيغت فيها كراستا "في الممارسة العملية" و"في التناقض"، وإن قامت بتلخيص مركز لأطروحات الكراسة الأولى.

إن كراسة "من أين تأتي الأفكار السديدة؟"، هي عبارة عن فقرة مقتطفة من مشروع القرار الصادر عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني بصدد بعض القضايا المتعلقة بعمل الحزب في الريف، وقد صيغ هذا المشروع تحت إشراف الرفيق ماو تسي تونغ، أما هذه الفقرة، فقد كتبها الرفيق ماو تسي تونغ نفسه. وقد صدرت في ماي 1963.

يقول ماو مخاطبا أعضاء الحزب من خلال طرحه لمجموعة من الأسئلة: "من أين تأتي الأفكار السديدة؟ هل تنزل من السماء؟ لا، هل هي فطرية في عقل الإنسان؟ لا. إنما تأتي من الممارسة الاجتماعية بأنواعها الثلاثة: النضال من أجل الإنتاج، والصراع الطبقي، والتجربة العلمية. إن الوجود الاجتماعي للإنسان هو الذي يحدد تفكيره، وما أن تستوعب الجماهير

علي محمود

حرر بتاريخ 10 - 5 - 2016

هوامش:

(1) كل المقتطفات المستعملة في هذا النص مأخوذة من الكراستين.

(2) إن النص أعلاه لا يعفي من قراءة الكراستين.

يتمكنوا من تصحيح أفكارهم، ومن إجادة القيام بالتحقيقات والدراسة وتلخيص التجارب، والتغلب على الصعاب، والتقليل من الأخطاء، وتأدية أعمالهم على نحو مرضي، وخوض النضال الشاق من أجل بناء الصين حتى تغزو بلدا اشتراكيا عظيما قويا، ومن أجل مساعدة الشعوب العريضة التي تعاني الاضطهاد والاستغلال في جميع أرجاء العالم وذلك تنفيذاً للواجب الأممي العظيم.

حول قانون التناقض

الجزء الأول

I - لينين، ماو، قانون التناقض

(1) لينين و قانون التناقض من خلال

مقالة "حول مسالة الديالكتيك"

كتب لينين مقالة "حول مسالة الديالكتيك" سنة 1915، تعيمها لدراساته حول الديالكتيك في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ القرن العشرين، حيث كانت الحرب الامبريالية الأولى قد اندلعت، و تحولت معها الاشتراكية الديموقراطية الأوربية إلى جثة، بعد خيانتها لمبادئ الثورة الاشتراكية والأممية البروليتارية. كان لينين قد أعاد دراسة هيجل من جديد و استوعب جوهر أطروحاته الفلسفية حول الديالكتيك، و تم ذلك في ظروف تاريخية كانت تعرف انشطارات كبرى حتمت إعداد المنهج الثوري لاستيعاب تناقضات المرحلة، و العمل على حلها، في وقت كان العديد من الماركسيين السابقين قد ضعفوا أو انهاروا أمام تلك التحديات الكبرى. في تلك المقالة الشهيرة كثف لينين أهم أطروحاته حول الديالكتيك.

(أ) الأطروحة الأولى : ازدواج الواحد و معرفة جزئيه المتناقضين كجوهر للديالكتيك.

كتب لينين معرفا الديالكتيك بما يلي:

"إن ازدواج ما هو واحد و معرفة جزئية المتناقضين، يشكلان جوهر الديالكتيك (أحد جواهره، إحدى خصائصه أو ميزاته الرئيسية، إن لم تكن خاصيته الرئيسية). على هذا النحو بالضبط يطرح هيجل المسألة بدوره ...".

بعد هذا التعريف أكد لينين على ضرورة إثبات هذا الجانب من مضمون الديالكتيك و ذلك بواسطة تاريخ العلم، و هي دعوة لكل الماركسيين للبحث الدائم في لب الديالكتيك من خلال الدراسات و البحوث العلمية، حتى لا يظل التعريف أعلاه للديالكتيك مجرد كلام فارغ، أو جعجعة بلا طحين.

ب) الأطروحة الثانية: الاعتراف بوحدة الضدين أو الأضداد

تعني ضرورة الإقرار بوجود اتجاهات متناقضة، متضادة ينفي بعضها البعض في جميع ظواهر الطبيعة و المجتمع و تفاعلاتها.

إن شرط إدراك جميع تفاعلات العالم، ضمن حركتها الذاتية و تطورها العفوي و واقعها الحي، يقوم على ضرورة إدراك ذلك كوحدة أضداد.

يقول لينين: "إن التطور هو صراع الأضداد". و يرى أن المفهومين الممكنين عن التطور الذي يعطيهم التاريخ، يعني المفهومين الأساسيين في ذلك هما: التطور بوصفه نقصانا و زيادة، بوصفه تكرارا، و التطور بوصفه وحدة الأضداد، أي ازدواج الواحد و انشطاره إلى ضدين ينفي أحدهما الآخر في ظل علاقات وحدة بينهما.

و يقول لينين مقارنا بين المفهومين:

بالنسبة للمفهوم الأول: "مع المفهوم الأول عن الحركة، تبقى في الظل الحركة الذاتية، قوتها المحركة، مصدرها، سببها (أو ينقل هذا المصدر إلى الخارج، الله، فاعل ما، إلخ).

بالنسبة للمفهوم الثاني: "أما المفهوم الآخر، فهو يحملنا على معرفة مصدر الحركة الذاتية".

و بالرجوع إلى المفهوم الأول، يرى لينين أنه "جامد، عقيم، جاف".

أما بالرجوع إلى المفهوم الثاني يقول لينين عنه: "طافح بالنشاط و الحياة. فقط المفهوم الثاني يعطينا مفتاح الحركة الذاتية لكل ما هو موجود، فقط المفهوم الثاني يعطينا مفتاح "القفزات"، و "الانقطاع في الاستمرار"، و تحول الشيء إلى نقيضه و تدمير ما هو قديم و ولادة ما هو جديد".

يخلص لينين إلى "أن وحدة (.....) الأضداد مشروطة، مؤقتة، نسبية. إن صراع الأضداد التي ينفي بعضها البعض، هو مطلق، كما هو عليه التطور، كما هي عليه الحركة".

ج) الأطروحة الثالثة: في الجدل الموضوعي يوجد النسبي في المطلق و الفرق بين النسبي و المطلق نسبي

في محاولة للينين للمقارنة بين الديالكتيك و الذاتوية، و يقصد أساسا الريبية و السفسطائية، يميز لينين بينهما من خلال إبراز أن الديالكتيك (الموضوعي) يتميز بكون الفرق لديه بين النسبي و المطلق هو نسبي كذلك، ففي الديالكتيك الموضوعي يوجد المطلق في النسبي. أما الذاتوية و السفسطائية، فالنسبي ليس سوى نسبي و هو ينفي المطلق.

د) الأطروحة الرابعة: في العلاقة بين العام و الخاص و طريقة العرض الديالكتيكي

يعتمد لينين في أطروحته هذه، على المثال أو النموذج الذي يقدمه ماركس في كتابه "الرأسمال"، و يقول في هذا الصدد: "إن ماركس يحلل أولا، في "رأس المال"، أبسط الأشياء، و أألفها و أكثرها تواترا، الأشياء العادية التي تصادف مليارات المرات العلاقات في المجتمع البورجوازي (البضاعي): تبادل البضائع.

و تحليله يبين في هذه الظاهرة البسيطة (في "خلية" المجتمع البورجوازي هذه) جميع تناقضات (بشكل أدق، بذور جميع التناقضات) المجتمع المعاصر. إن تتممة هذا العرض تبين لنا تطور (و نمو، و حركة) هذه التناقضات، و هذا المجتمع في مجموع أجزائه المختلفة، منذ بدايته حتى نهايته".

و يخلص لينين إلى وجوب اعتماد طريقة العرض هذه للديالكتيك بوجه عام، و يرى أن ديالكتيك المجتمع البورجوازي ليس في نظر ماركس سوى حالة خاصة من حالات الديالكتيك.

يرى لينين، و هو في ذلك يثمن عالما ملاحظة هيجل العبقريّة، أنه لو أخذنا أية جملة من أبسط الجمل العادية، مثال أوراق الشجرة خضراء، جان هو إنسان، ميدور هو كلب ...، إن في هذه الأمثلة البسيطة يوجد الديالكتيك، فالخاص هو عام. فهناك وحدة أضداد (فالخاص هو ضد العام). إن الخاص لا يوجد إلا في ظل هذا الارتباط المؤدي إلى العام. و العام لا يوجد إلا في الخاص عن طريق الخاص. فكل خاص هو بطريقة أو بأخرى عام. كل عام هو (جزئي أو جانب أو جوهر) من الخاص. و كل عام لا يشمل جميع الأشياء الخاصة إلا على وجه التقريب. و كل خاص يرتبط عبر آلاف الدرجات الانتقالية بعناصر خاصة من طبيعة أخرى (أشياء، ظاهرات، تفاعلات)، و هنا يقول لينين، توجد عناصر و بذور مفهوم الضرورة، أي عناصر العلاقة الموضوعية في الطبيعة. و هنا يوجد العرضي و الضروري، و الظاهرة و الجوهر، فحينما نقول ميرو كلب أو هذه ورقة شجرة، فإننا يقول لينين ننبد جملة من المميزات بوصفها من الأشياء العرضية، و نفصل الجوهر عن ما هو طارئ، و نعارض أحدهما بالآخر. هكذا بين لينين أن الديالكتيك بوجه عام هو من طبيعة كل معرفة إنسانية. إن الديالكتيك حسب لينين هو حقا نظرية المعرفة (عند هيجل) و عند الماركسية.

ه) الأطروحة الخامسة: المثالية بين الديالكتيك المادي و المادية الميتافيزيقية

عند لينين فإن الديالكتيك بوصفه معرفة حية، متعددة الجوانب، مع ما لا حد له من الأشكال و الألوان، من أجل مقاربة الواقع، لهي ذات محتوى فائق الغنى مقارنة بالمادية الميتافيزيقية، التي يقول عنها لينين، أن مصيبتها الكبرى، أنها ليست أهلا لتطبيق الديالكتيك على نظرية الانعكاس، و على مجرى المعرفة و تطورها. فالمثالية الفلسفية من وجهة نظر المادية الفظة أو الميتافيزيقية، ليست سوى ضربا من الحماقة، أما بالنسبة للمادية الديالكتيكية، فهي

تطوير وحيد الجانب، مبالغ فيه (انتفاخ، نفخ) لإحدى الميزات الصغيرة في المعرفة، لأحد جوانبها، لأحد وجوهها، نحو مطلق مفصول عن المادة، عن الطبيعة، بله مؤله.

و في استدراك له، يقول لينين: "إن المثالية هي ضرب من الظلامية الإكليريكية، وهذا صحيح. و لكن المثالية الفلسفية هي (بالحري، و فضلا عن ذلك) سبيل يؤدي إلى الظلامية الإكليريكية عبر أحد مظاهر معرفة الإنسان (الديالكتيكية) اللامتناهية التعقيد".

و يضيف لينين قائلا، إن معرفة الإنسان ليست (و بالتالي لا تتبع) خطا مستقيما، إنما هي خط منحن، يقترب اقترابا لا حد له من سلسلة من الحلقات، من خط لولبي. و يمكن تحويل أي قطعة، قسم، جزء من هذا الخط المنحني (تحويله بشكل وحيد الجانب) إلى خط مستقل، كامل، مستقيم، يؤدي (إذا كانت الأشجار تحول دون رؤية الغابة) حينذاك إلى المستنقع، إلى الظلامية الإكليريكية (حيث تثبته المصلحة الطبقية للطبقات السائدة). إنها طريقة أحادية الجانب و تسير في خط مستقيم، متخشبة و متكلسة، ذاتوية، و عمى ذاتي، تلك هي الجذور العرفانية للمثالية، و يقدم لينين تشبيها رائعا للمثالية، حين يقول عنها: "إنها زهرة عقيمة، ذلك لا جدال فيه، و لكنها تثبت على شجرة حية هي شجرة المعرفة الإنسانية الحقيقية، الشديدة الحيوية، المثمرة، القوية، الكلية الجبروت، الموضوعية، المطلقة".

(2) ماو و كراسه "في التناقض"

[إن الديالكتيك، بمعناه الأصلي، هو دراسة التناقض في صميم جوهر الأشياء]

(أ) معنى "الديالكتيك هو دراسة التناقض في جوهر الأشياء".

سبق وأن رأينا في مقالة سابقة، أن الكون مادة في حالة حركة، مرتبطة بالزمان والمكان. ولذلك فالتغيير الديالكتيكي والحركة الديالكتيكية يلخصها مقولة: "الشيء يبقى حيث هو، ولا شيء يظل على ما هو". إن توالي الأطوار في حركة الأشياء وتسلسلها الداخلي، يعني أن كل الأشياء هي عبارة عن سيرورة، كما أن الديالكتيك هو تعبير عن حركة ودينامية ذاتية لسيرورة الأشياء، وبطبيعة الحال فكل السيرورات تتربط فيما بينها ترابطا شاملا. وحينما نتحدث عن الدينامية الذاتية الخاصة بشيء ما، فنحن نتكلم عن محرك تطورها، وكما قال لينين فليس الديالكتيك سوى دراسة التناقض في جوهر الأشياء، أي بالعودة إلى ديناميتها الذاتية.

فما هي الدينامية الذاتية للأشياء؟

إنها ببساطة الصراع ووحدة الأضداد التي تشكل مصدر الحركة في الشيء. والديالكتيك ينطلق من المضمون الداخلي للشيء، بما يعني أن مصدر الحركة للشيء داخلي، ويعني هذا، أن التناقضات الداخلية في الأشياء هي مصدر حركتها، وحينما نقول أن التناقض هو مصدر الحركة، نعني بذلك أنه سببها الأساسي، أما الترابطات، وتأثيراتها المختلفة، فهي أسباب ثانوية، ولذلك يقول الماركسيون، أن العامل الداخلي في الشيء، هو قاعدة التغيير، والعامل الخارجي هو شرطه. وبدون هذه النظرة لا يمكن تفسير وجود الكيف، ولا تفسير الانتقال من كيف إلى آخر.

إن العوامل الخارجية، تسبب فقط الحركة الميكانيكية للأشياء والظواهر، أي أن ما يحصل هو مجرد تغيير في الحجم والكم، ونحن نعلم أن التبدلات الكمية هي شكل ارتقائي تدريجي، ولكن في ظل الاستمرارية، بينما التبدلات الكيفية هي شكل ثوري، تطور عبر قفزات أو نقلات نوعية، مما يولد انقطاعا في سيرورة التطور، بحيث يتم الانتقال من نوعية قديمة إلى نوعية جديدة.

ب) قانون التناقض كنقطة انطلاق لفهم الديالكتيك

لقد جعل لينين من قانون التناقض، القانون الأساسي للديالكتيك المادي، وقد طالب لينين بإنجاز برنامج لتطوير نواة الديالكتيك، من خلال موضوعته الأساسية: "الواحد ينشطر إلى اثنين". وعلى خطى لينين سار ماو، فأنجز البرنامج الذي حدده لينين، وبذلك سيشكل هذا التطور التركيب الفلسفي للثورة الماركسية - اللينينية ضد الدوغمائية والتحريفية.

قام ماو تسي تونغ ببلورة وحدة الأضداد ضمن خمسة أطروحات دياكتيكية أساسية و هي:

* الأطروحة الأولى: كل واقع هو سيرورة.

* الأطروحة الثانية: كل سيرورة هي عبارة عن نظام من التناقضات.

* الأطروحة الثالثة: في كل سيرورة أو نظام للتناقضات هناك تناقض يكون رئيسيا.

* الأطروحة الرابعة: كل تناقض هو غير متساوق، متماثل، بما يعني أن أحد طرفي التناقض تكون له السيطرة داخل الحركة الشمولية للتناقض نفسه،

ويطلق على هذا الطرف، الطرف الرئيسي للتناقض.

* الأطروحة الخامسة: هناك تناقضات من نوع مختلف، وحلها متعلق بسيرورات مختلفة، من هنا التفريق بين التناقضات العدائية وغير العدائية.

على قاعدة هذا التوظيف لقانون التناقض ضمن خمس أطروحات، تطورت المنهجية الدياكتيكية في مواجهة الدوغمائية والتحريفية، وتم على يد ماو تسي تونغ اكتشاف نظرية الخطين، أو ما سمي بصراع الخطين كقانون لفهم تطور الظواهر السياسية داخل الحزب والدولة على حد سواء. كما أن تطور هذه المنهجية الدياكتيكية، سمح بجعل مفهوم الصراع الطبقي (وليس تطوير قوى الإنتاج) في قلب الخط الثوري، مما سمح بتطوير الفهم الصحيح للصراع الطبقي، في ظل دكتاتورية البروليتاريا، فليست الوحدة الوضعية للبنية التحتية، بل انشطار البنية الفوقية والحزب كذلك، مما سمح ببلورة نظرية الخطان:

الطريق البروليتاري أو الطريق البورجوازي ، وفي هذا السياق تبلور فكر ماوتسي تونغ كتيار مضاد ، كعمل تقسيم ، أي استعمال مبدأ وحدة الضدين ، تماماً كما فعل من قبله لينين مع فرسان الاشتراكية الديمقراطية والشوفينية ، وبذلك كان فكره ثائراً بامتياز ، دياكتيكي ، فكر للثورة ومن أجل الثورة.

علي محمود

دجنبر 2016

حول قانون التناقض

الجزء الثاني

II - نظرية التناقض في فكر ماو تسي تونغ من خلال كراسة "في التناقض"

رغم أن المادية الجدلية تتميز بمجموعة من القوانين التي تحكم مسار تطور المادة والفكر، إلا أنه عندما يقوم البحث عن أهمها يقفز إلى الذهن مباشرة قانون وحدة الضدين الذي يقول عنه ماو تسي تونغ أنه القانون الأساسي الأول في الديالكتيك المادي، ويعتمد ماو في ذلك على قوله لينين في "ملخص مبحث" "فلسفة مدرسة الإيليين" من "تاريخ الفلسفة" لهيجل، المدون في "الدفاتر الفلسفية"، لينين.

نظرية وحدة الضدين، وبذلك نستطيع الإمساك بلب الديالكتيك، غير أن هذا يتطلب إيضاحاً وتطوراً". و بالفعل قام ماو تسي تونغ بإنجاز البرنامج الذي يؤدي إلى تطوير نواة الديالكتيك من خلال دراسة الموضوع الأساسية: الواحد ينشطر إلى اثنين. وإذا أخذنا بعين الاعتبار السياق التاريخي العام لظهور أفكار لينين و تطوير ماو تسي تونغ لها، فبالإمكان القول على أن هذا التطور الحاصل عند لينين و ماو، قد شكل التركيب

يقول لينين: "إن الديالكتيك، بمعناه الأصلي، هو دراسة التناقض في صميم جوهر الأشياء".

كما يقول في مقاله "في مسألة الديالكتيك": "أن انقسام شيء واحد إلى شطرين و إدراك أجزائه المتناقضة هو جوهر الديالكتيك". و في "ملخص علم المنطق" لهيجل يقول كذلك: "يمكن تلخيص الديالكتيك وتعريفه بأنه

* كتب الرفيق ماو تسي تونغ هذا البحث الفلسفي بعد بحثه السابق "في الممارسة العملية"، وللغرض نفسه: تصحيح الفكر المتسم بالجمود العقائدي الذي كان رائجا في الحزب بشكل خطير، ولقد ألقى هذا البحث كمحاضرة في الكلية الحربية والسياسية المناهضة لليابان في ينان، وقد أدخل المؤلف عليه بعض التعديلات والتنقيحات عند ضمه إلى "المؤلفات المختارة لماو تسي تونغ".

الفلسفي للثورة الماركسية - اللينينية ضد التحريفية (لينين) و الدوغمائية (ماو). و لدراسة هذا القانون تطرق ماو إلى مجموعة من القضايا الفلسفية تسمح بفهم الديالكتيك المادي من حيث الأساس ، وذلك من خلال منهجية دياكتيكية فيما يخص العرض الذي اتبعه ماو بالانطلاق من العام إلى الخاص (من خلال النظرتان الرئيسيتان إلى العالم ، عمومية التناقض ...) واعتماد مجموعة من المقولات تسمح بتحليل حركة تناقض ما (خصوصية التناقض ، التناقض الرئيسي ، والطرف الرئيسي للتناقض ، الموقع العدائي والتناحري في التناقض ...) ، هكذا يقوم ماو بتوظيف مبدأ وحدة الضدين ضمن مجموعة من الأطروحات الجدلية الأساسية وهي :

1- كل واقع هو بمثابة سيرورة.

1 - الأطروحة الأولى : في البدء هناك نظرتان للعالم

اعتمد ماو ملخص انجلز لتاريخ المعرفة البشرية القائل بوجود وجهتي نظر حول قوانين تطور العالم : وجهة نظر ميتافيزيقية ووجهة نظر دياكتيكية ، وهما نظرتان متضادتين إلى العالم ، وهي نفس الفكرة التي أكدها لينين من خلال قوله : "إن وجهتي النظر الأساسيتين (أو الممكنتين ؟ أو

- 2- كل سيرورة بالإمكان ردها في آخر التحليل إلى نظام من التناقضات.
- 3- ضمن كل سيرورة كنظام للتناقضات ، هناك دائما تناقض يكون رئيسيا.
- 4- كل تناقض هو غير متساوق (متماثل) بما يعني أن أحد طرفي التناقض يكون مسيطرا داخل الحركة الشمولية للتناقض نفسه ، ونعني هنا نظرية الطرف الرئيسي للتناقض.
- 5- هناك دائما تناقضات من نوع مختلف وحلها مرتبط بسيرورات مختلفة ، ولابد هنا من التفريق بين التناقضات العدائية والتناقضات غير العدائية.

المشاهدتين تاريخيا ؟) عن التطور (الارتقاء) هما : التطور كنقصان وازدياد ، كتكرار ، والتطور كوحدة الضدين (انقسام الواحد إلى ضدين متعارضين تربط بينهما علاقة متبادلة) ، يعني لينين هنا هاتان النظرتان المختلفتان إلى العالم.

بمثل هكذا منظور "فالاستغلال الرأسمالي والمنافسة الرأسمالية والإيديولوجية الفردية في المجتمع الرأسمالي، ...، يمكن أن نجدها في المجتمع العبودي في الزمن القديم، بل في المجتمع البدائي، ولن تبرح موجودة إلى الأبد دون أدنى تعديل".

وبنفس المنظور يفسرون أسباب التطور الاجتماعي بالعوامل الخارجة عن المجتمع، كالبيئة الجغرافية والمناخ... وينكرون النظرية التي يقدمها الديالكتيك المادي القائلة بأن التناقضات الكامنة في باطن الأشياء هي التي تسبب تطورها.

وعلى النقيض من النظرة الميتافيزيقية إلى العالم، يعرف ماو النظرة الديالكتيكية إلى العالم بكونها "تدعو إلى دراسة تطور الشيء من باطنه، ومن حيث صلته بالأشياء الأخرى، وذلك بمعنى أنه ينبغي النظر إلى تطور الشيء على أنه حركته الباطنية والحتمية، وأن كل شيء يرتبط في حركته بالأشياء الأخرى التي تحيط به، ويتبادل معها التأثير، فالعلة الأساسية في تطور الشيء إنما تكمن في باطنه لا خارجه، في تناقضه الباطني، وهذا التناقض الباطني موجود في كل الأشياء وهو الذي يبعث فيها الحركة والتطور. إن هذا التناقض الكامن في الأشياء هو العلة الأساسية في تطورها،

إن أسلوب التفكير الميتافيزيقي، باعتباره جزءا من النظرة المثالية إلى العالم ساد لقرون طويلة من التاريخ البشري لم يغب عنها وجود لنظرات دياالكتيكية في هاته الفلسفة أو تلك، أو حتى في أجناس أخرى من الفكر الإنساني، لكن نشوء النظرة الديالكتيكية المادية الماركسية إلى العالم، لم يتحقق إلا مع دخول الاقتصاد الاجتماعي في العديد من أقطار أوروبا مرحلة الرأسمالية العالية التطور، وبلوغ القوى المنتجة والصراع الطبقي والعلوم مستوى لم يسبق له مثيل في التاريخ، لأن البروليتاريا الصناعية أصبحت القوة المحركة العظمى في التطور التاريخي. ومع هذا النشوء ظهر لدى البورجوازية مذهب التطور المبتذل المستند إلى مثالية رجعية صريحة وعارية الوجه تماما، وذلك لمقاومة الديالكتيك المادي. ويعرف ماو النظرة الميتافيزيقية أو نظرة التطور المبتذل إلى العالم، بأنها "النظر إلى العالم بصورة منعزلة جامدة وحيدة الجانب. إن دعاة هذه النظرة يعتبرون أن جميع الأشياء في العالم، جميع أشكالها وفصائلها منعزلة بعضها عن بعض إلى الأبد، وثابتة لا تتبدل بصورة أزلية، وأنه إذا كانت هناك تبدلات فإنها لا تعني سوى ازدياد أو نقصان في الكمية أو تغير في المكان، وإن علة هذا الازدياد أو النقصان وذلك التغير لا تقوم في باطن الأشياء نفسها، بل تقوم خارجها، أي بفعل قوى خارجية".

المجتمع ترجع في الأساس إلى تطور التناقضات الباطنية فيه، وهي التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج، والتناقض بين الطبقات، والتناقض بين القديم والجديد، وتطور هذه التناقضات هو الذي يدفع المجتمع إلى الأمام، يدفع المجتمع الجديد لكي يقضي على المجتمع القديم. فهل يستبعد الديالكتيك المادي الأسباب الخارجية؟ كلا، فالديالكتيك المادي يعتبر أن الأسباب الخارجية هي عامل التبدل، والأسباب الباطنية هي أساس التبدل، وأن الأسباب الخارجية تفعل فعلها عن طريق الأسباب الباطنية".

"إن هذه النظرة الديالكتيكية إلى العالم تعلم الإنسان بصورة رئيسية كيف يلاحظ ويحلل بصورة صحيحة حركة التناقض في مختلف الأشياء، وكيف يستنبط على أساس هذا التحليل حلولاً للتناقضات. ولذلك فإن فهم قانون التناقض في الأشياء فهما محددا هو أمر بالغ الأهمية بالنسبة إلينا".

أما الصلة القائمة والتأثير المتبادل بين شيء وآخر فهي علة ثانوية. وهكذا فإن الديالكتيك المادي قد دحض بصورة قاطعة نظرية الأسباب الخارجية أو نظرية القوة الدافعة، التي ينادي بها أنصار المادية الميكانيكية الميتافيزيقية ومذهب التطور المبتذل الميتافيزيقي. ومن الواضح أن الأسباب الخارجية الصرفة لا يمكن أن تؤدي إلا إلى حركة ميكانيكية، أي إلى تغيرات في الحجم والكمية، لكنها لا تستطيع أن تفسر لماذا تختلف الأشياء نوعياً ذلك الاختلاف، الذي لا يمكن حصره، ولماذا يتحول الشيء من نوعية إلى أخرى.

والواقع أن الحركة الميكانيكية الناتجة عن القوى الخارجية تتحقق هي الأخرى بواسطة التناقض القائم في باطن الأشياء. وكذلك فإن النمو البسيط للنباتات والحيوانات وتطورها الكمي ناتجة بصورة رئيسية عن تناقضاتها الباطنية. وينطبق نفس الشيء على المجتمع، فإن تطوره مشروط، بصورة رئيسية، بالأسباب الباطنية لا الخارجية".

يقول ماو: "من وجهة النظر الديالكتيكية المادية، فإن التبدلات تنشأ في الطبيعة بصورة رئيسية عن تطور التناقضات الكامنة فيها. وتغيرات

2 - الأطروحة الثانية : عمومية التناقض

ويتبث ماو صحة هذه الأقوال بالتأكيد على أن : "الاعتماد المتبادل بين كل طرفي تناقض في كل شيء معين ، والصراع بينهما يقرران حياة ذلك الشيء ويدفعان تطوره إلى الأمام . فليس ثمة شيء ليس به تناقض ، ولولا التناقض لما وجد شيء".

لقد أوضح انجلز عمومية التناقض بالعبارات التالية : "إذا كان التغير الميكانيكي البسيط لشيء ما من مكان لآخر ينطوي على تناقض ، فإن ذلك ينطبق بالأحرى على الأشكال الأعلى لحركة المادة ، وبخاصة على الحياة العضوية وتطورها ... إن الحياة تعني بالتحديد وقبل كل شيء : إن الشيء الحي هو هو ، في كل لحظة ذاته ولكنه في نفس الوقت شيء آخر أيضا . الحياة أيضا تناقض قائم في الأشياء والعمليات ذاتها ، وهو ينشأ ويحل نفسه باستمرار ، وحالما يتوقف هذا التناقض تتوقف الحياة أيضا ويحل الموت . ولقد رأينا كذلك أننا لا نستطيع في مجال التفكير أيضا أن نتجنب التناقضات . وأن التناقض مثلا بين قدرة الإنسان الكامنة فيه لا متناهية على

يعرف ماو تسي تونغ هذه الأطروحة قائلا : "إن عمومية التناقض وصفته المطلقة ذات معنى مزدوج . فأولا توجد التناقضات في عملية تطور جميع الأشياء ، وثانيا توجد حركة التناقض في عملية تطور كل شيء منذ البداية حتى النهاية". ويعتمد ماو تسي تونغ مجموعة من المقتطفات لمؤسسي الفكر الماركسي - اللينيني ، فانجلز يقول : "إن الحركة نفسها هي التناقض".

ويعرف لينين قانون وحدة الضدين بأنه "اعتراف (اكتشاف) بالاتجاهات المتناقضة المتعارضة المستقلة عن بعضها في جميع ظواهر الطبيعة (بما فيها الفكر والمجتمع) وعملياتها".

هل هذه الآراء صحيحة كما يقول ماو ؟ "أجل ، إنها صحيحة . إن الاعتماد المتبادل بين طرفي كل تناقض في كل شيء معين والصراع بينهما يقرران حياة ذلك الشيء ويدفعان تطوره إلى أمام . فليس ثمة شيء ليس به تناقض ، ولولا التناقض لما وجد شيء".

واحد يؤلفان بذلك الوحدة الكلية للحرب، ويدفعان الحرب إلى التطور، ويحلان مشكلاتها، وينبغي النظر إلى كل اختلاف في مفاهيم الإنسان على أنه انعكاس لتناقض موضوعي. إن التناقضات الموضوعية تنعكس في التفكير الذاتي، وتشكل حركة التناقض في المفاهيم، وتدفع التفكير نحو التطور وتحل دون انقطاع المشاكل التي تقوم في فكر الإنسان.

إن تضاد الأفكار المختلفة والصراع بينها في صفوف الحزب ينشأ على الدوام، وهو انعكاس داخل الحزب بالتناقضات بين الطبقات والتناقضات بين القديم والجديد في المجتمع. ولا شك أن حياة الحزب ستتوقف إذا خلا من التناقضات ومن الصراع الإيديولوجي من أجل حل هذه التناقضات.

وهكذا فقد اتضح أن التناقض يوجد بصورة شاملة سواء في الأشكال البسيطة للحركة أو في الأشكال المعقدة لها، في الظواهر الموضوعية أو في الظواهر الفكرية، وأنه يوجد في جميع العمليات.

يقول ماو: "إن التناقض شيء عام مطلق، موجود في جميع عمليات تطور الأشياء، ويتخلل جميع العمليات من البداية حتى النهاية". ويرى ماو، أن لينين قد أشار إلى أن ماركس قد قدم في كتابه "رأس المال" تحليلاً نموذجياً لحركة التناقض التي تجري خلال عملية تطور الأشياء من البداية حتى

المعرفة، وبين وجودها الفعلي في البشر الذين هم محدّدون خارجياً ويملكون معرفة محدودة، هذا التناقض يجد حله في تعاقب لا متناهي - بالنسبة إلينا على الأقل في الواقع - من الأجيال، في التقدم الذي لا نهاية له".

يقول انجلز في كتابه "ضد دوهرينغ" الباب الأول، المبحث 12: "الديالكتيك: الكمية والنوعية"، "إن أحد المبادئ الأساسية للرياضيات العليا هو التناقض..."

"لكن حتى الرياضيات الدنيا تمتلئ بالتناقضات..."

أما لينين في مقالته الشهيرة: "في مسألة الديالكتيك"، لقد أوضح عمومية التناقض عبر مجموعة من الأمثلة: "في الرياضيات: + و-، التفاضل والتكامل، في الميكانيكا: الفعل ورد الفعل، في الفيزياء: الكهرباء: الموجبة والسالبة، في الكيمياء: اتحاد الذرات وتفككها، في العلوم الاجتماعية: الصراع الطبقي".

ويضيف ماو أمثلة من العلم الحربي قائلاً: "إن الهجوم والدفاع في الحرب، التقدم والانسحاب، النصر والهزيمة، كلها مظاهر متناقضة. ولا يمكن لأحد منها أن يبقى بدون نقيضه. وهذان الجانبان متصارعان ومتحدان في وقت

النهاية. وهذه هي الطريقة التي ينبغي أن تطبق في دراسة عملية تطور كل شيء. ولقد طبقها لينين نفسه بصورة صحيحة، والتزم بها في جميع كتاباته".

"إن أول ما حلله ماركس، في كتابه "رأس المال"، هو أبسط علاقة في المجتمع البورجوازي (السلعي)، علاقة اعتيادية أساسية مألوفة عادية أكثر من غيرها، علاقة تحدث مليارات المرات ألا وهي تبادل السلع. وفي هذه الظاهرة البسيطة جدا (في هذه "الخلية" للمجتمع البورجوازي)، كشف التحليل جميع تناقضات (أو بذور جميع تناقضات) المجتمع الحديث. وأن العرض اللاحق يبين لنا تطور (النمو والحركة على حد سواء) هذه

التناقضات وهذا المجتمع في المجموع العام لأجزائه المختلفة، منذ بدايته حتى نهايته".

ويستطرد لينين قائلاً: "وهكذا ينبغي أن تكون طريقة العرض (والدراسة) للديالكتيك بصورة عامة".

ومن هذا يستخلص ماو أنه ينبغي على الشيوعيين الصينيين أن يتقنوا هذه الطريقة، وعندئذ فقط يستطيعون تحليل تاريخ الثورة الصينية وظروفها الراهنة تحليلًا صحيحًا وتحديد آفاقها في الوقت نفسه.

3 - الأطروحة الثالثة : خاصية التناقض

بعد الحديث عن عمومية التناقض التي تؤكد على وجوده العام في عملية تطور جميع الأشياء من البداية للنهاية، يتطرق ماوتسي تونغ لخاصية التناقض مؤكداً أن "للتناقض في كل شكل من أشكال حركة المادة صفته الخاصة"، وأن "معرفة البشر للمادة هي معرفتهم بأشكال حركة المادة،

لأنه ليس في العالم من شيء سوى المادة في حالة حركة، وحركة المادة لا بد أن تتخذ شكلاً من الأشكال المعينة، وينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار، عندما نتفحص كل شكل من أشكال حركة المادة، السمات التي يشترك فيها هذا الشكل مع الأشكال الأخرى للحركة. لكن ما له أهمية أعظم هو

الأشياء وتطورها، ولكننا إذا لم ندرس خاصية التناقض فلن نستطيع أن نحدد الجوهر الخاص الذي يميز شيئاً عن الأشياء الأخرى، ولن نستطيع أن نكتشف الأسباب الخاصة أو الأسس الخاصة لحركة الأشياء أو تطورها، ومن ثم لن نستطيع أن نميز بين الأشياء أو نحدد حقول البحث العلمي".

ويشير ما وتسي تونغ إلى أن التسلسل في حركة المعرفة البشرية يسير عبر نمو تدريجي من معرفة أشياء مفردة وخاصة إلى معرفة أشياء عامة، ولا يستطيع الإنسان أن يتوصل إلى التلخيص وأن يعرف الجوهر المشترك بين الأشياء المختلفة إلا بعد إلمامه بالجوهر الخاص بكل شيء منها. وبعد الإلمام بهذا الجوهر المشترك، فإنه بالإمكان استعمال المعرفة تلك كدليل، فيتم الإقدام عندئذ على دراسة أشياء محددة مختلفة لم تدرس بعد أو درست دراسة غير معمقة، فيتم استخراج الجوهر الخاص لكل منها، وبهذه الطريقة، نستطيع أن نكمل المعرفة بالجوهر المشترك ونغنيها ونطورها، وهكذا نحول دون أن تصبح هذه المعرفة جافة أو متحجرة، وعند ماو: "هناك عمليتان في المعرفة: إحداهما من الخاص إلى العام، والأخرى من العام إلى الخاص. وتتقدم المعرفة البشرية على الدوام بإعادة هاتين العمليتين بشكل دائري، ويمكنها مع كل دورة (إذا طبقت الطريقة العلمية بدقة) أن ترتفع لدرجة أعلى وأن تتعمق باستمرار".

وجوب ملاحظة السمة الخاصة للشكل المعين من أشكال حركة المادة، وملاحظة هذه السمة الخاصة هي التي تشكل أساس معرفتنا بالأشياء، أي ملاحظة الاختلاف الجوهري الذي بينه وبين الأشكال الأخرى. وبهذا وحده نستطيع أن نميز بين الأشياء المختلفة. إن كل شكل من أشكال الحركة يحتوي في ذاته على تناقضه الخاص. وهذا التناقض الخاص يشكل الجوهر الخاص الذي يميز الشيء عن الأشياء الأخرى".

"إن الجوهر الخاص الذي يحمله كل شكل من أشكال حركة المادة يتحدد بالتناقض الخاص الذي يتميز به ذلك الشكل. وينطبق هذا لا على الطبيعة وحدها، بل ينطبق كذلك على ظواهر المجتمع والتفكير. فإن كل شكل من أشكال المجتمع، وكل أسلوب من أساليب التفكير، له تناقضه الخاص وجوهره الخاص. وإن تصنيف الدراسات العلمية المختلفة يقوم بالضبط على أساس التناقضات الخاصة القائمة في كل فرع من فروع العلم".

ويتقدم ماوتسي تونغ بعرض هام من خلال ربط قانون التناقض بالنظرية المادية الجدلية للمعرفة، مقدما منهجا رائعا للدراسة والتحليل والتفكير الجدلي، فعند ماوتسي تونغ من الطبيعي أننا "إذا لم نعرف عمومية التناقض، لا نستطيع أن نكتشف الأسباب العامة أو الأسس العامة لحركة

وتتمثل أهمية طرح ماوتسي تونغ لخاصية التناقض في الكيفية التي يجب أن تعالج بها التناقضات المختلفة، يقول ماو تسي تونغ :

"إن التناقضات المختلفة من حيث طبيعتها لا يمكن أن تحل إلا بطرق مختلفة طبيعياً"، وكذلك "فاستخدام الطرق المختلفة لحل التناقضات المختلفة هو مبدأ يجب على الماركسيين - اللينينيين أن يراعوه مراعاة دقيقة".

ويبرهن ماو على ذلك بمجموعة من الأمثلة حول التناقضات المختلفة كالتناقض بين البروليتاريا والبورجوازية، والتناقض بين جماهير الشعب الغفيرة والنظام الإقطاعي، والتناقض بين المستعمرات والامبريالية، والتناقض داخل الحزب الشيوعي ... فالأول يحل بالثورة الاشتراكية والثاني بالثورة الديمقراطية والثالث بالحرب الوطنية الثورية والرابع بالنقد والنقد الذاتي .

ويعود ماو إلى نقد الدوغمائيين على هذا المستوى قائلاً : "أما أصحاب الجمود العقائدي فلا يراعون هذا المبدأ، إذ أنهم لا يفهمون الفوارق بين الحالات الثورية المختلفة، وبنتيجة ذلك لا يفهمون أنه ينبغي اللجوء إلى طرق مختلفة في سبيل حل التناقضات المختلفة، بل يعتنقون بانتظام

ويوجه ماو تسي تونغ نقده اللاذع للدوغمائيين قائلاً : "أصحاب الجمود العقائدي بيننا يرتكبون أخطاءاً في هذه المسألة لأنهم، من جهة، لا يفهمون أنه يجب علينا أن ندرس خاصية التناقض ونعرف الجوهر الخاص لكل شيء من الأشياء المفردة قبل أن نستطيع أن نعرف بصورة كاملة عمومية التناقض والجوهر المشترك للأشياء المختلفة، ولأنهم، من جهة ثانية، لا يفهمون أنه يجب علينا بعد الإلمام بالجوهر المشترك للأشياء أن نتقدم لدراسة تلك الأشياء المحددة التي لم تدرس بعد بصورة معمقة أو التي نشأت للمرة الأولى".

ويضيف ماو تسي تونغ بصدده هؤلاء الدوغمائيين قائلاً : "إن أصحاب الجمود العقائدي بيننا قوم من الكسالى يرفضون القيام بأية دراسة شاقة للأشياء المحددة، ويعتبرون الحقائق العامة كشيء هبط من السماء فيجعلونها صيغاً مجردة صرفة لا يمكن أن يدركها الناس، وبذلك ينكرون كل الإنكار ويقبلون في الوقت ذاته الترتيب الطبيعي الذي يتوصل الإنسان بواسطته إلى معرفة الحقيقة، وكذلك لا يفهمون الترابط القائم بين عمليتي المعرفة البشرية - من الخاص إلى العام ثم من العام إلى الخاص، إنهم لا يفهمون البتة النظرية الماركسية حول المعرفة".

واحد، والوسائل المحددة التي يناضل بها ضد نقيضه عندما يكون كل منهما معتمدا على الآخر، ويكون متناقضا معه في الوقت ذاته، أو عندما ينفصل هذا الاعتماد المتبادل. إن دراسة هذه المسائل أمر في غاية الأهمية".

وفي التعبير عن هذا المعنى يقول لينين، إن التحليل الملموس للواقع الملموس هو الشيء الجوهرى الأول فى الماركسية، وهو روحها الحية. ويعود ماو تسي تونغ لىصب نقده على الدوغمائيين قائلا: "لكن أصحاب الجمود العقائدى بيننا خلافا لتعاليم لينين، لا يستعملون أدمغتهم البتة فى سبيل تحليل أى شيء بصورة محددة، بل يستخدمون دائما أسلوب القوالب الجامدة فى كتاباتهم وخطاباتهم ويخرجونها عقيمة جوفاء خالية من كل مضمون، وهم بذلك خلقوا فى حزبنا أسلوبا سيئا جدا فى العمل".

ويوصى ماو تسي تونغ الرفاق عند دراستهم لقضية ما بالابتعاد عن النظرة الذاتية، والنظرة الوحيدة الجانب والنظرة السطحية. فالنظرة الذاتية هي العجز عن دراسة القضايا دراسة موضوعية، أى وفق وجهة النظر المادية. أما النظرة الواحدة الجانب فهي العجز عن دراسة القضايا من جميع جوانبها أى فهم الجزء وحده من دون الكل وفهم النقائص وحدها من دون

صيغة واحدة يتخيلون أنها غير قابلة للتبدل ويطبقونها بصورة آلية على كل شيء، الأمر الذى لا يؤدي سوى إلى جلب النكسات على الثورة أو إلى إفساد قضية كانت تسير على ما يرام حتى ذلك الحين".

وللتقدم فى دراسة خاصية التناقض يضيف ماوتسي تونغ قائلا: "لكي نكشف اللثام عن خاصية التناقضات فى مجموعها وفى ترابطها معا داخل عملية تطور الشيء، أى أن نكشف اللثام عن جوهر عملية تطور الشيء، ينبغي لنا أن نكشف اللثام عن خاصية طرفي كل تناقض من التناقضات فى هذه العملية، وإلا أصبح من المستحيل الكشف عن جوهر العملية، وهذه قضية يجب علينا أن نغيرها أيضا كل انتباه فى دراستنا".

وبعد التأكيد على أهمية الكشف عن خاصية طرفي التناقض لفهم خاصية التناقضات، فلكل من هذه التناقضات خاصيته بحيث لا يمكن وضعها جميعا على صعيد واحد، يضيف ماو أن "لكل طرف من طرفي كل تناقض خصائصه بحيث لا يمكن أيضا أن يعامل معاملة واحدة".

وحول دراسة طرفي التناقض وما يعنى بذلك يقول ماو: "نقصد بدراسة طرفي كل تناقض فهم المركز الخاص الذى يحتله كل طرف، والشكل المحدد الذى به يعتمد كل طرف على الآخر فى البقاء ويتناقض معه فى آن

المنجزات وفهم العمل الثوري السري وحده من دون العمل الثوري العلني. وعموما عدم فهم خاصية كل طرف من طرفي تناقض ما، وهذا ما يعنى به النظرة الوحيدة الجانب، أي رؤية الجزء دون الكل، كرؤية الشجرة دون الغابة. ويقول ماو:

"إذا فعلنا ذلك فلن نستطيع الاهتداء إلى طرق حل التناقضات، ولا إنجاز مهمات الثورة، ولا أداء الواجبات بصورة مرضية، ولا تطوير الصراع الإيديولوجي في داخل الحزب بصورة صحيحة".

ويعتمد ماو على قولة شهيرة لسون تسي حول العلوم العسكرية: "إذا كنت على بينة من أمر عدوك وأمر نفسك فلن تنهزم في أي معركة تخوضها".

ويقول لينين: "لكي نعرف موضوعا ما معرفة حقيقية، علينا أن نلم وندرس جميع جوانبه وروابطه و"وسائطه"، وبالرغم من أننا لن نتمكن من تحقيق ذلك بصورة تامة، إلا أن حرصنا على دراسة القضايا من جميع جوانبها سيقينا شر الأخطاء والجمود". ويضيف ماو: "إن من واجبنا أن نتذكر هذه الكلمات".

أما النظرة السطحية فهي ألا يأخذ المرء بعين الاعتبار خاصية تناقض ما في مجموعه ولا خاصية كل طرف من طرفي التناقض، ويعني هذا أن لدى المرء

إنكار لضرورة التعمق في شيء ودراسة خاصية التناقض القائم فيه بدقة، وبذلك يكون الاكتفاء بالنظر إليه من بعيد بعد أن يلمح التناقض لمحة خاطفة، وتتم محاولة حل هذا التناقض.

ويعود ماو مرة أخرى إلى نقد الدوغمائيين فيقول: "أن السبب في أن رفاقنا المصايين بالجمود العقائدي والتجريبية يرتكبون الأخطاء يعود إلى أنهم ينظرون إلى الأشياء بطريقة ذاتية ووحيدة الجانب وسطحية. والنظرة الوحيدة الجانب، والنظرة السطحية هما في نفس الوقت نظرة ذاتية، ذلك لأن جميع الأشياء الموضوعية هي في الحقيقة مرتبطة بعضها ببعض، ولها قوانينها الباطنية، إلا أن بعض الناس، بدلا من أن يعكسوا الأشياء كما هي ينظرون إليها نظرة وحيدة الجانب أو نظرة سطحية، دون أن يدركوا علاقاتها المتبادلة ولا قوانينها الباطنية، ولهذا فإن أسلوبهم أسلوب ذاتي".

وبعد معالجة إشكالية طرفي التناقض في إطار معالجة خاصية التناقض، ينتقل ماو إلى ملامسة إشكالية أخرى، ملامسة أولية، ونعني هنا قضية التناقض الأساسي.

يقول ماو تسي تونغ: "إن كل عملية حركة التناقضات في تطور شيء ما لها خصائصها التي يجب أن نأخذها بعين الاعتبار، سواء من حيث ترابط

ويقدم ماو تسي تونغ بعض الأمثلة عن ذلك، من قبيل المقارنة بين رأسمالية عصر المنافسة الحرة ورأسمالية عصر الامبريالية، من حيث استمرارية الطبيعة الرأسمالية لهذا المجتمع وطبيعة الطبقتين المتناقضتين داخله : البروليتاريا والبورجوازية، لكن وفي نفس الوقت ازداد التناقض بينهما في المرحلة الثانية، وظهرت تناقضات جديدة من قبيل التناقض بين الرأسمال الاحتكاري والرأسمال الحر والتناقض بين الدول الاستعمارية والمستعمرات ... ويتكلم ماو كذلك عن مسار الثورة الديمقراطية البورجوازية في الصين منذ بدايتها سنة 1911 مسطرا المراحل التي مرت منها وخاصة مرحلة قيادة البورجوازية لها ومرحلة قيادة البروليتاريا لها.

ويخلص ماو في نهاية هذا الجزء إلى ما يلي قائلا : "إن العلاقة بين عمومية التناقض وخاصيته هي العلاقة بين الصفة المشتركة والصفة الفردية للتناقض. وأننا نعني بالصفة المشتركة أن التناقض يوجد في جميع العمليات يسري فيها من البداية حتى النهاية، والحركة، والأشياء والعمليات، والتفكير — كلها تناقضات — وإن نكران التناقض في الأشياء هو نكران كل شيء. هذا مبدأ عام ينطبق على جميع الأزمان وجميع الأماكن بدون استثناء، ومن هنا جاءت الصفة المشتركة أي الصفة المطلقة

التناقضات أو من حيث حال كل طرف من أطرافها، وليس هذا فقط، بل إن لكل مرحلة من مراحل عملية تطور الشيء أيضا خصائصها التي يجب أن نأخذها بعين الاعتبار.

فإن التناقض الأساسي في عملية تطور شيء ما، وجوهر العملية الذي يحدده هذا التناقض الأساسي لن يتلاشيا قبل اكتمال العملية، لكن الوضع في كل مرحلة من عملية التطور الطويلة للشيء كثيرا ما يختلف عن وضع مرحلة أخرى. والسبب في ذلك أنه على الرغم من أن طبيعة التناقض الأساسي في عملية تطور شيء ما وجوهر العملية لا يتغيران، إلا أن التناقض الأساسي يتزايد حدة في المراحل المختلفة من عملية التطور الطويلة. وفضلا عن ذلك فإن بعضا من التناقضات العديدة، الكبيرة منها والصغيرة، التي يحددها التناقض الأساسي أو يؤثر فيها يصبح متزايد الحدة، والبعض الآخر يحل مؤقتا أو جزئيا أو تخف حدته، وإن تناقضات جديدة تنبثق، وبنتيجة ذلك تظهر في العملية مراحل مختلفة. فإذا لم يعر الناس انتباها لوجود مراحل مختلفة في عملية تطور شيء ما فإنهم لن يستطيعوا معالجة تناقضاته كما يجب".

للتناقض. لكن هذه الصفة المشتركة كائنة في كل صفة فردية، وبدون صفة فردية لا توجد صفة مشتركة".

"هذا المبدأ مبدأ الصفة المشتركة والصفة الفردية، والمطلق والنسبي، هو جوهر التناقض في الأشياء، وأن عدم فهمه معناه نبذ الديالكتيك"

4 - الأطروحة الرابعة: التناقض الرئيسي و الطرف الرئيسي للتناقض

التأثير بين التناقض الرئيسي والتناقضات الثانوية، وكيفية الانتقال من الأول إلى الثاني والعكس صحيح. "ولكن (يقول ماو) مهما يكن الحال، فمهما لا يتطرق إليه أدنى شك أن تمة تناقضا رئيسيا واحدا فقط يلعب الدور القيادي في كل مرحلة من عملية التطور".

والخلاصة كما يقول ماو: "ونعلم مما تقدم أنه إذا كانت في أية عملية من العمليات تناقضات كثيرة فلا بد أن يكون بينها تناقض رئيسي يلعب الدور القيادي الحاسم، أما بقية التناقضات فإنها تحتل مركزا ثانويا تابعا. ولذلك ينبغي لنا في دراسة أية عملية معقدة يوجد فيها تناقضان أو أكثر أن نبذل قصارى جهودنا كي نكتشف التناقض الرئيسي فيها. فإذا أمسكنا بزمام هذا

ينتقل ماو هنا إلى دراسة جانبين آخرين من جوانب خاصية التناقض وهما: التناقض الرئيسي والطرف الرئيسي للتناقض.

ضمن كل سيرورة أو عملية تطور معقدة لشيء ما توجد، يقول ماوتسي تونغ: "في كل عملية تطور معقدة لشيء ما تناقضات عديدة، ولا بد أن يكون أحدها هو التناقض الرئيسي الذي يقرر وجوده وتطوره، وجود وتطور التناقضات الأخرى، أو يؤثر في وجودها وتطورها".

ويسوق ماو تسي تونغ العديد من الأمثلة في المجتمع الرأسمالي وفي البلدان شبه المستعمرة، حيث تظهر العلاقة بين التناقض الرئيسي والتناقضات غير الرئيسية أو الثانوية. ويؤكد ماو كذلك على الكيفية التي يتم فيها تبادل

مدى ازدياد أو نقصان قوة كل من الطرفين المتناقضين في صراعه مع الطرف الآخر في مجرى تطور الشيء".

وهناك من ينظر إلى العلاقة بين طرفي التناقض نظرة ميكانيكية يغيب عنها الجدل وتؤدي إلى أخطاء عويصة، ومثل هذه النظرة انتقدها ماو بقوله:

"و يظن بعض الناس أن الأمر على خلاف ذلك في بعض التناقضات. مثال ذلك أن القوى المنتجة هي الطرف الرئيسي في التناقض بينها وبين علاقة الإنتاج، وأن الممارسة العملية هي الطرف الرئيسي في التناقض بن النظرية وبينها، وأن القاعدة الاقتصادية هي الطرف الرئيسي في التناقض بينها وبين البناء الفوقي، ولا يحدث تحول متبادل في مركز أي طرف منها. هذه هي نظرية المادية الميكانيكية، لا نظرية المادية الديالكتيكية، صحيح أن القوى المنتجة، والممارسة العملية والقاعدة الاقتصادية، تلعب عادة الدور الرئيسي الحاسم، ومن ينكر هذه الحقيقة لا يكون ماديا. لكن يجب أن نعترف كذلك ان علاقات الإنتاج والنظرية والبناء الفوقي تلعب بدورها، في ظل ظروف معينة الدور الرئيسي الحاسم. فعندما يتعذر تطور القوى المنتجة بدون تبديل علاقات الإنتاج، فإن تبديل علاقات الإنتاج يلعب الدور الرئيسي الحاسم. و"حين لا توجد نظرية ثورية لا يمكن ان تكون

التناقض الرئيسي، استطعنا حل سائر التناقضات بسرعة. وهذه هي الطريقة التي علمنا ماركس إياها عندما درس المجتمع الرأسمالي".

بناءا عليه لا يجوز التعامل مع جميع التناقضات الموجودة في عملية ما على قدم المساواة، بل لابد ومن الضروري التمييز بين التناقض الرئيسي والتناقض الثانوية، مع تولية انتباه خاص للإمساك بزمام التناقض الرئيسي. والكلام نفسه ينطبق على الطرفين المتناقضين سواء كان تناقضا رئيسيا أم ثانويا، فكل طرف من الطرفين المتناقضين، في أي تناقض كان، متفاوت عن تطور الطرف الآخر، والطرف الرئيسي هو الذي يلعب الدور القيادي في التناقض، وهو الذي يقرر في طبيعة الشيء. لكن هذا الوضع غير ثابت إلى ما لا نهاية، يقول ماو :

"لكن هذا الوضع ليس ثابتا، إذ أن الطرف الرئيسي وغير الرئيسي لطرف ما يتحول أحدهما إلى الآخر، فتتبدل طبيعة الشيء تبعا لذلك. إننا نجد، في عملية معينة لتطور تناقض ما أو في مرحلة معينة من مراحل التطور أن الطرف الرئيسي هو "أ" وأن الطرف غيرالرئيسي هو "ب"، ولكن في مرحلة أخرى من التطور أو في عملية أخرى منه تنعكس الحالة، وهذا تبدل يقرره

دراسات مجردة ونعجز عن فهم أوضاع التناقضات بصورة محددة، ونعجز بنتيجة ذلك عن إيجاد الطريقة الصحيحة لحلها. وان هذا الفارق أو هذه الخاصية المتمثلة في كلا الوضعين، تمثل التفاوت بين القوتين المتناقضتين. فلا شيء في العالم يجري في تطورات متساوية بصورة مطلقة، وينبغي لنا أن نعارض نظرية التطور المتساوي أو نظرية التوازن. وفي الوقت ذاته، فإن هذه الأوضاع المحددة الخاصة بالتناقض، والتبدل الذي يطرأ على الطرف الرئيسي والطرف غير الرئيسي للتناقض في مجرى تطوره، تظهر بالضبط قوة الأشياء الجديدة في إزاحة الأشياء القديمة والحلول محلها.

هناك حركة ثورية" كما قال لينين، فإن خلق النظرية الثورية والدعاية لها يلعب الدور الرئيسي الحاسم".

وفي نهاية هذا الجزء يكثف ماو الأفكار الواردة كلها في فقرة جد مركزة تقول :

"إذا لم نبحت أثناء دراستنا لقضية خاصية التناقض، مسألة التناقض الرئيسي والتناقضات غير الرئيسية في عملية معينة، ومسألة الطرف الرئيسي والطرف غير الرئيسي لتناقض معين، يعني إذا لم ندرس الفارق المتمثل في كلا هذين الوضعين من أوضاع التناقضات، فإننا سنتورط في

إن دراسة أوضاع التفاوت في التناقضات، دراسة التناقض الرئيسي والتناقضات غير الرئيسية والطرف الرئيسي وغير الرئيسي للتناقض، هي إحدى الطرق المهمة التي يقرر بها حزب سياسي ثوري، بصورة مضبوطة، خططه الاستراتيجية والتكتيكية في الشؤون السياسية والعسكرية، وهي دراسة من واجب جميع الشيوعيين أن يولوها الاهتمام".

5- الأطروحة الخامسة : الوحدة والصراع بين طرفي التناقض

يقول لينين : "إن الديالكتيك هو النظرية التي تدرس كيف يمكن لضدين كيف يمكن أن يكونا متحدين ، وكيف يصيران متحدين (يتبادلان فيصيران متحدين)- في أية ظروف يكونان متحدين ، ويتحول أحدهما إلى نقيضه — ولماذا ينبغي للفكر الإنساني ألا ينظر إلى هذين الضدين كشيئين ميتين جامدين ، بل كشيئين حيين مشروطين قابلين للتبدل ولتحول أحدهما إلى نقيضه".

يوضح ماو معنى هذا القول اللينيني قائلاً : "إن الطرفين المتناقضين في أية عملية هما متعارضان ومتصارعان ومتضادان فيما بينهما. ويوجد هذان الطرفان المتناقضان دون استثناء في عمليات تطور جميع الأشياء في العالم وفي الفكر البشري. فالعملية البسيطة تحوي زوجاً واحداً من الأضداد فقط ، بينما تحوي العملية المعقدة أكثر من زوج واحد منها. وبين كل زوج وآخر من الأضداد يقوم أيضاً تناقض ما. وعلى هذا النحو تشكل التناقضات كافة الأشياء في العالم الموضوعي والفكر البشري وتدفعها إلى الحركة".

إذا كان الأمر كذلك يقول ماو ، فلما الحديث عن الوحدة أو الاتحاد ؟

الجواب : "إن كل طرفين متناقضين هما بسبب عوامل معينة ، متسمان بعدم الوحدة بينهما ، لذلك نقول أنهما متناقضان. ولكنهما في الوقت ذاته متسمان بسمة الوحدة ، فهما لذلك مترابطان. هذا ما يشير إليه لينين بقوله أن الديالكتيك يدرس "كيف يمكن لضدين أن يكونا متحدين؟" ، يمكن ذلك لأن كلا منهما يشكل شرط وجود الآخر. هذا هو المعنى الأول للوحدة. لكن هل يكفي أن نقول فقط أن كل طرف من طرفي التناقض يشكل شرطاً لوجود الطرف الآخر ، وأن تمة وحدة بينهما ، ولذلك يمكنهما أن يتواجدا في كيان واحد؟ كلا ، لا يكفي ذلك. فالأمر لا ينتهي عند حد الاعتماد المتبادل في البقاء بين الطرفين المتناقضين ، وإنما الأهم من ذلك هو تحول أحدهما إلى نقيضه. وهذا يعني أن كلا من الطرفين المتناقضين في شيء ينزع بسبب عوامل معينة ، إلى التحول إلى الطرف المناقض له ، وأن ينتقل إلى مركز نقيضه. هذا هو المعنى الثاني لوحدة طرفي التناقض".

عوامل معينة إلى نقيضه. وبانعكاس هذه الحقيقة في الفكر الإنساني تتكون النظرة الديالكتيكية المادية الماركسية إلى العالم.

إن الطبقات الرجعية التي تحكم اليوم، والتي حكمت في الماضي على حد سواء، والميتافيزيقا التي في خدمتها، هي وحدها التي لا تنظر إلى الأضداد كأشياء حية مشروطة، قابلة للتبدل يتحول بعضها إلى نقيضه، بل تنظر إليها كأشياء ميتة جامدة، وتنشر هذه النظرة المغلوطة في كل مكان فتضلل جماهير الشعب لتحقيق هدفها للإبقاء على حكمها. وأن واجب الشيوعيين بالضبط هو فضح فكرة الرجعية والميتافيزيقا المغلوطة هاته، ونشر الديالكتيك الكامنة في الأشياء، والعمل على التعجيل بتحويل الأشياء حتى يحققوا أهداف الثورة".

عموما تلك هي قضية الوحدة، فما هو الصراع إذن ؟ وما هي العلاقة بين الوحدة والصراع ؟

لقد قال لينين : "إن اتحاد (تطابق، وحدة، تواحد) الضدين مشروط ، مؤقت، عارض، نسبي. أما صراع الضدين المتعارضين فهو مطلق، تماما كما أن التطور والحركة مطلقان".

ويقدم ماو العديد من الأمثلة حول هذا الطرح، ويهمننا هنا المثال التالي نظرا لأهميته بالنسبة لتجارب البناء الاشتراكي، وما تطرحه من تحديات بالنسبة للشيوعيين المعاصرين، يقول ماو :

"إن توطيد دكتاتورية البروليتاريا أو ديكتاتورية الشعب، يعني بالضبط تهيئة الظروف لتصفية هذا الدكتاتورية والتقدم إلى مرحلة أعلى، مرحلة يتم فيها القضاء على جميع أنظمة الدولة. وأن تأسيس الحزب الشيوعي وتطويره يعني بالضبط تهيئة الظروف للقضاء على الحزب إلى الأبد. إن هذه الأشياء متناقضة لكنها يكمل بعضها بعضا في الوقت ذاته".

"إن كل متناقضين مترابطان، فهما يتواجدان في كيان واحد في ظل عوامل معينة، بل يتحول أحدهما إلى الآخر في ظل عوامل معينة، هذا هو كامل معنى وحدة الضدين. وهو بالضبط ما عناه لينين عندما قال : "كيف يصيران متحدين (يتبدلان فيصيران متحدين) في أية ظروف يكونان متحدين ويتحول أحدهما إلى نقيضه".

"إن وحدة أو اتحاد طرفي كل تناقض في الأشياء الموضوعية هي بطبيعتها ليست بالشيء الميت، الجامد، بل هي شيء حي، مشروط، قابل للتبدل، مؤقت، نسبي، فكل طرف من طرفي أي تناقض يتحول بفعل

بواسطة الشكل الثاني. لذلك نقول إن اتحاد الضدين مشروط ومؤقت ونسبي، بينما الصراع بين ضدين متعارضين هو مطلق."

يقول ماو: "إن الوحدة المشروطة النسبية تشكل مع الصراع المطلق غير المشروط حركة التناقض في جميع الأشياء". ويضيف في جملة أخرى قائلاً: "إن في الوحدة صراعا، وفي الخاصية عمومية، وفي الصفة الفردية صفة مشتركة، هذا ما يقصده لينين حين قال: "فتمة مطلق في النسبي"."

في تعليقه على قوله لينين يقول ماو: "إن لجميع العمليات بداية ونهاية، وكل عملية تتحول إلى نقيضها. إن ثبات جميع العمليات نسبي، أما تغييرها الذي يظهر في تحول عملية إلى عملية أخرى فهو مطلق."

إن كل شيء يتخذ في حركته شكلين: شكل السكون النسبي، وشكل التبدل الملحوظ. وإن كلا شكلي الحركة مسبب عن صراع العاملين المتناقضين اللذين ينطوي عليهما الشيء. فعندما يتخذ الشيء في حركته الشكل الأول، فإنه يطرأ عليه تبدل كمي، لا تبدل نوعي، لذلك يبدو في حالة من السكون الظاهري. وعندما يتخذ الشيء في حركته الشكل الثاني، فإنه يكون قد بلغ نقطة معينة هي قمة التبدل الكمي الذي حصل في الشكل الأول، فيتسبب عن ذلك تفكك الكيان الواحد، ويحدث تبدل نوعي، لذلك يبدو الشيء في حالة من التبدل الملحوظ."

"إن الأشياء تتحول على الدوام من الشكل الأول إلى الشكل الثاني بلا انقطاع، بينما صراع الضدين موجود في كلا الشكلين ويتم حل التناقضات

6- الأطروحة السادسة : مركز التعادي في التناقض

أو التناقض العدائي و غير العدائي

إن الموضوع أعلاه لذات أهمية قصوى بالنسبة للماركسيين اللينينيين، ذلك كما يقول ماو ف "إنه لأمر فائق الأهمية أن ندرك هذا. فهو يساعدنا على أن نفهم أن الثورات والحروب الأهلية لا يمكن تجنبها في المجتمع الطبقي، وبدونها يستحيل تحقيق أي قفزة في التطور الاجتماعي، والإطاحة بالطبقات الحاكمة الرجعية، ليظفر الشعب بالسلطة السياسية. وينبغي للشيوعيين أن يفضحوا الدعايات المضللة التي ينشرها الرجعيون عن عدم ضرورة الثورة الاجتماعية واستحالتها وغير ذلك، وأن يتمسكوا بالنظرية الماركسية اللينينية عن الثورة الاجتماعية بحيث يساعدون الشعب على أن يفهم أن الثورة الاجتماعية ليست ضرورية كل الضرورة فحسب، بل هي ممكنة كل الإمكان أيضا، وهي حقيقة علمية قد أكدها تاريخ الجنس البشري كله وانتصار الاتحاد السوفياتي".

يحاول ماو في هذا الجزء توضيح علاقة الصراع بين الضدين بمسألة التعادي بينهما، انطلاقا من أن التعادي شكل من أشكال صراع الضدين لكنه ليس الشكل الوحيد، ويوضح ماو فكرته بمثال التاريخ البشري، فيقول :

"في التاريخ البشري يوجد التعادي الطبقي، وهو مظهر خاص من مظاهر صراع الضدين. إن التناقض قائم بين الطبقة المستغلة والطبقة المستغلة، سواء في المجتمع العبودي أو في المجتمع الإقطاعي أو في المجتمع الرأسمالي، وهاتان الطبقتان المتناقضتان تتعايشان وتتصارعان زمنا طويلا في مجتمع واحد، لكن الجانبين لا يتخذان شكل التعادي الصريح الذي يتطور إلى ثورة إلا بعد أن ينمو التناقض بين الطبقتين ويبلغ مرحلة معينة. ومثل ذلك تحول السلم إلى حرب في المجتمع الطبقي".

موجودة. وليس محتما أن يظهر هذا التناقض فورا، في البداية، أو في ما يتعلق بمسائل خاصة، في شكل عدائي. لكنه يمكن أن يتطور، مع تطور الصراع الطبقي ويصبح تناقضا ذا صفة عدائية".

ويختم ماو هذا الجزء بقولة لينين : "إن التعادي والتناقض شيئان مختلفان كل الاختلاف، ففي ظل الاشتراكية سيتلاشى التعادي، أما التناقض فيظل قائما". و لعل لينين هنا يعني أن التعادي ليس إلا شكلا من صراع الضدين، وليس الشكل الوحيد، فلا يجوز أن نفرض هذه الصيغة على كل شيء .

وبالنسبة لحل التناقضات على ضوء هذه الموضوعية يرى ماو : "أن التناقض والصراع شيئان عامان ومطلقان، إلا أن طرق حل التناقضات، أي أشكال الصراع، تختلف تبعا لاختلاف طبيعة التناقضات. فبعض التناقضات تتميز بصفة عدائية مكشوفة، وبعضها على خلاف ذلك. وتبعا للتطور المحدد للأشياء، تتطور بعض التناقضات التي كانت في الأصل ذات صفة غير عدائية فتصبح تناقضات ذات صفة عدائية، وهناك تناقضات أخرى هي في الأصل ذات صفة عدائية، ولكنها تتطور فتصير تناقضات صفتها غير عدائية".

ويقدم ماو مثالا لكيفية تطور التناقضات داخل الحزب الشيوعي، فيقول : "إن التناقض بين الأفكار الصحيحة والأفكار الخاطئة داخل الحزب الشيوعي هو انعكاس للتناقضات الطبقية في الحزب، عندما تكون الطبقات

و أخيرا يقدم ماو ملخصا للأفكار الواردة في النص بكامله فيقول :

"إن قانون التناقض في الأشياء، أي قانون وحدة الضدين، هو القانون الأساسي في الطبيعة والمجتمع، وهو بالتالي القانون الأساسي للتفكير.

إنه مناقض للنظرة الميتافيزيقية إلى العالم. وهو يعني ثورة عظيمة في تاريخ المعرفة البشرية. ووفقا لوجهة نظر المادية الديالكتيكية، فإن التناقض يوجد في جميع عمليات الأشياء الموضوعية والتفكير الذاتي، ويسري في جميع العمليات من البداية حتى النهاية، هذه هي عمومية التناقض وإطلاقته. ولكل تناقض وكل طرف من طرفي التناقض خصائصه، هذه هي خاصية التناقض ونسبيته. والشئان المتضادان بينهما، وحدة في ظل عوامل معينة، ولهذا يمكنهما أن يتعايشا في كيان واحد، ويمكن أيضا لكل منهما أن يتحول إلى نقيضه، وهذه أيضا خاصية التناقض ونسبيته. لكن صراع الضدين لا ينقطع، فالصراع يوجد حين يتعايش الضدان أو حين يتحول أحدهما إلى نقيضه على حد سواء، والصراع واضح على الأخص في الحالة الأخيرة، وهذه أيضا عمومية التناقض وإطلاقه. وحين ندرس خاصية التناقض ونسبيته، ينبغي أن نلاحظ الفرق بين مختلف أشكال صراع الضدين، وإلا وقعنا في خطأ. وإذا فهمنا حقا، بعد الدراسة، النقاط الجوهرية المذكورة أعلاه، فإننا نستطيع إذن أن نسحق تلك الأفكار العقائدية الجامدة، المخالفة للمبادئ الأساسية للماركسية-اللينينية والمؤذية لقضيتنا الثورية، وكذلك يمكن لرفاقنا المجريين، أن ينظموا خبرتهم ويبلوروها في شكل مبادئ، متجنبين بذلك تكرار أخطاء التجريبية. وهذه هي بعض النتائج البسيطة التي توصلنا إليها في دراستنا لقانون التناقض".

ملحوظة :

إن التلخيص والتعليق على نص ماو تسي تونغ "في التناقض" لا يعفي المناضلين والقراء من قراءة النص كاملا والاستفادة منه . كما أن مقالتنا حول هذا النص تضمنت مجموعة من الاستشهادات، بعضها، كما هو الحال بالنسبة للاستشهادات المنسوبة إلى انجلز أو لينين أو غيرهما، فتوجد هوامشها في النص الأصلي، والبعض الآخر مأخوذ من النص الأصلي وذو صلة بالفقرات المأخوذ منها، بمعنى أن صاحبه هو ماو تسي تونغ نفسه .

علي محمود

دجنبر 2016

ملحق العدد

ضد التحريفية

دفاعا عن الماركسية - اللينينية

- محاولة أولية -

"الشيوعية هي علم تحرر البروليتاريا"

فريدريك انجلز

1 - تحديد أولي

لن نطرح في هذه المحاولة الأولية كل التفاصيل الداخلية للأطروحات الماركسية الأساسية (أنظر بهذا الصدد مقالات العدد الأول من كراسات الشرارة)، و لا جميع تفاصيل التجربة البروليتارية الثورية التي بناها و قادها البلاشفة حتى انتصارها التاريخي، و فُتِح الطريق الثوري أمام البروليتاريا، طريق الديكتاتورية الديمقراطية الثورية و الاشتراكية في مرحلة الرأسمالية الامبريالية. كما لن نحاول عرض التفاصيل الدقيقة و الغنية جدا لعمل "فلاديمير إيتش أوليانوف" (لينين¹) و أفكاره في عمق محور التجربة البلشفية الثورية. بل سنعمل، مع الأخذ ضمينا بأهم تلك التفاصيل، على عرض أهم تلك الأطروحات الماركسية

1. لأول مرة استُخدم اسم لينين كاسم غطاء لمقالة صدرت في عدد دجنبر سنة 1901 بمجلة "زاريا". لقد قيل الكثير حول شخصية لينين، من الأصدقاء و الخصوم و الأعداء، و نختار هنا ما قاله فيه "أكسلرود"، و هو منشفي بعد أن كان سنة 1900 عضوا في مجموعة إصدار "إسكرا"، جوابا على أحد أعضاء "الأممية الاشتراكية" الذي سأله "إن كان كل ما حدث من صراع و انقسام هو من عمل رجل واحد؟" و "كيف يمكن لرجل أن يكون فعلا و خطرا؟". جاء جواب "أكسلرود": "لأنه لا يوجد رجل آخر استوعبته الثورة كليا، رجل لا توجد في أفكاره إلا فكرة الثورة. حتى عندما ينام، لا يحلم بشيء آخر غير الثورة. حاول إذن التعامل مع شخصية من هذا النوع!".

الأساسية و كذا العناصر المركزية للتجربة البروليتارية الثورية التي أنجزها البلاشفة بقيادة لينين ، المناضل الشيوعي الثوري الذي سخر كل طاقاته ، جهده و كل تفاصيل حياته اليومية في بنائها و تطويرها حتى انتصارها ، و الذي لن نجد في التعبير عن مبدئه العملي في الحياة ، سوى البراكسيس الثوري الذي يستبطنه جوهر الأطروحة الحادية عشر لماركس حول "فویرباخ": "عمل الفلاسفة فقط على تفسير العالم و بشكل مختلف ، ما يهم هو تحويله" ، و كذا الأطروحة الثالثة: "...أن الناس هم الذين يغيرون الظروف...".

هذه القضايا ، هي في النظرية الماركسية عناصر مركزية و داخلية - عضوية لوحدة شاملة ، هي في العمق ، أي استراتيجيا ، قضية تحرر البروليتاريا ، و عن طريق تحررها ، تَحَرُّر المجتمعات البشرية ، بمن فيها طبقة ذاك الخط الانتهازي القصير النفس و الضيق الأفق ، من نظام اجتماعي طبقي استغلالي و اضطهادي ، يمثله في مرحلتنا التاريخية ، نظام الرأسمالية الإمبريالي. لذا ، من الضرورة البروليتارية الثورية أولا و المنهجية

2 - في حزب - ثورة - ديكتاتورية البروليتاريا

يستحيل ، من وجهة نظر البروليتاريا ، أي من زاوية النظر الماركسية - اللينينية ، عزل قضية (بناء) الحزب البروليتاري عن قضيتي الثورة و الديكتاتورية البروليتارية ، كعمليات العزل و الانتقائية الإيديولوجية التي بها يجرى خط "اليسار" الانتهازي النظرية الماركسية (وحدها هنا) ، بعد عزله لها ، هكذا ، عن "اللينينية" التي أخفى أرائه و مواقفه "النقدية" حولها ، هو في حقيقته الفعلية تَخلٍ يخدم بالأساس المصالح الطبقية المباشرة لهذا الخط الانتهازي من جهة ، و يعفي به ذاته ، من جهة ثانية ، من المهام و التبعات السياسية و التنظيمية العاجلة و الأساسية التي تفرضها عمليا عليه المهام البروليتارية الثورية التي لا و لن تخدم مصالحه المباشرة تلك.

الديالكتيكية² ثانيا، التعاطي الشمولي مع هذه القضايا المركزية نظريا -

2. قوانين الديالكتيك المادي هي ليست نهائية كما تصور ذلك بعض "المقالات". فهي، في المرحلة التاريخية الراهنة، و بشكل عام، "تخضع" لتطور حركة البروليتاريا الثورية في صراعاها ضد البرجوازية، و الذي فيه، هذا الصراع، لا يستثنى أي مجال. فهو صراع شامل و كلي، في السياسة و الاقتصاد، كما في العلوم و الثقافة و الفن... ففي الوحدة العضوية لمنطق تفكيرها المادي الديالكتيكي و نظريتها الثورية (المنهج ليس منفصلا و يستحيل عزله عن النظرية. فهو جزءها الداخلي العضوي لها، و الذي به هي تبين؛ تتطور و "تشامل" ديناميكيا باستمرار، و أي عزل له عنها، هو تجميد له هو، و في نفس الوقت هو تفتيت و تحطيم لبنانها)، تجيب حركة البروليتاريا ديالكتيكا، في الفكر و الممارسة، على كل القضايا التي تقدمها حركة واقع صراعاها ضد البرجوازية و نظامها الرأسمالي. فلا يمكن بأي حال من الأحوال، حتى من منظور الديالكتيك المادي لقوانينه و عناصره المكونة له، إخضاع منطق حركة الواقع - المادة لمنطق حركة الفكر، فهذا الأخير يتطور على أساس الحركة اللانهائية للأول، و هو بهذه الضرورة المادية ليس بنهائي ("جدلية الأشياء تخلق جدلية الأفكار و ليس العكس" يقول لينين في مخطوطه للشبيبة سنة 1920).

الديالكتيك، كما يقول ماركس، هو أساسا نقد و ثورة. أنظر بهذا الصدد، من جهة، للأفكار التي بلورها أنجلز بخصوص الديالكتيك في نقده للفكر الفلسفي الهيجلي (فويرباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية)، و لعملية هدم البنيان الفلسفي المثالي بشكل عام، و الهيجلي على الخصوص، بعزل و قلب نواته الديالكتيكية. و من جهة أخرى، أنظر للتعميق و التطوير الخلاق للديالكتيك المادي من طرف لينين الذي، في ملاحظاته حول علم المنطق لدى هيجل، حدد "عناصر الديالكتيك" في 16 عنصرا (أنظر الدفاتر الفلسفية). و جب الإشارة هنا للرجبة التي أبان عنها ماركس في صياغة عمل خاص بالديالكتيك المادي، لولا الأولوية التي منحها آنذاك لعمله حول "رأس المال" (أنظر رسالة ماركس ل "ديكتزن" بتاريخ 9 مايو 1868 -).

إيديولوجيا، سياسيا و تنظيميا، و المصيرية اجتماعيا.

لقد أثبت تاريخ الصراعات الطبقيّة، ما أكدت عليه النظرية الماركسية، و هي النظرية الثورية التي تبلورت في قلب نيران تلك الصراعات الطبقيّة و النضالات الحية للجماهير الكادحة، و على رأسها النضالات المجيدة للبروليتاريا ضد أسياد الاستغلال و الاضطهاد الجدد: طبقة البرجوازية (و حتى القدامى)، أن النضال الطبقي للبروليتاريا هو وحده الكفيل بالقضاء على هذه الأخيرة، و هو وحده القادر على وضع حد لعلاقات الاستغلال و الاضطهاد.

فمعلما البروليتاريا، الشيوعيين الثوريين ماركس و أنجلز، بلورا السلاح الفكري المادي الديالكتيكي المستند إلى المادية التاريخية و الحركة المنظمة و المستقلة للبروليتاريا، الذي به تعي هذه الأخيرة قوتها الذاتية و مصالحها الطبقيّة و وحدتها الضرورية و المصيرية في المعركة الحازمة و الحاسمة ضد الرأسماليين.

علمت الماركسية البروليتاريا أن تلف حولها كل القوى الاجتماعية الساخطة على طبقة البرجوازية، و تعمل على قيادتها إيديولوجيا؛ سياسيا و تنظيما في الهجوم على الرأسماليين، لتحطيم طبقة البرجوازية و دولتها، و إقامة السلطة السياسية البروليتارية لأجل التحويل الثوري للنظام الاجتماعي و

فالمهمة العملية و المركزية الرئيسية للحزب البروليتاري هي الثورة البروليتارية و الاستيلاء على السلطة السياسية، و رفع البروليتاريا إلى طبقة سائدة (أنظر البيان الشيوعي)، و هو عمل ديكتاتوري بامتياز. فكل الدول الطبقة التي انوجدت و تستمر في الوجود، هي ديكتاتورية للأقلية المالكة و المستغلة على الأغلبية المستغلة و المنتجة و غير المالكة، أما ديكتاتورية البروليتاريا، فهي ديكتاتورية الأغلبية غير المالكة و غير المستغلة على الأقلية المالكة المطاح بسلطتها السياسية، و هي بالتأكيد لن تكون ديمقراطية للجميع. إذ لا وجود لديمقراطية خالصة كتلك التي لوح بها كاوتسكي⁴ و أصحابه في حديثه عن المساواة الكونية (و على نهجه سار أحبار إيديولوجية "شمولية" حقوق الإنسان و المساواة الديماغوجية بين المستغلين و المستغلين). فهذه النظرية تخفي المصدر الحقيقي و الفعلي لألة الدمار الرأسمالية و تجعلها "أقل" و "وحشية"، "مؤنسنة في قوانين الدولة المؤمّنة بالعنف و القهر استغلال البرجوازية و استعبادها لأغلبية

4. أقام لينين، في إحدى ردوده على "كاوتسكي"، التمييز النوعي بين ديمقراطية البرجوازية (الديكتاتورية) و ديكتاتورية البروليتاريا (الديمقراطية)، حيث أكد على أن ديكتاتورية البروليتاريا (الديمقراطية) تؤرخ لدخول الجماهير، العمال و غير المالكين، و عن طريق القوة إلى الديمقراطية (الحقيقية) التي كانوا محرومين منها، و تدفعهم لممارسة السلطة. بينما ديمقراطية البرجوازية (الديكتاتورية) ترفض و تعمل بنويها على إبعاد الجماهير عن السلطة.

لبناء المجتمع الجديد، مجتمع الإنسان الحر. فلا يجب، يؤكد معلما البروليتاريا استنادا إلى تجربة "كمونة باريس"، أن يقتصر استيلاء البروليتاريا على جهاز الدولة البرجوازية و استخدامه لمصالحها الخاصة، بل و جب تحطيم هذا الجهاز (الجيش . الشرطة) و بناء دولة البروليتاريا، نظام الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا الذي يجسد المرحلة الانتقالية نحو المجتمع الشيوعي.

و من أجل تحقيق هذه المهمة التاريخية الثورية للبروليتاريا، أكدت الماركسية على ضرورة أن تتوفر البروليتاريا على حزبها الخاص بها كطبقة، الحزب الشيوعي.

فمنذ تأسيس العصبة الشيوعية، لم يفتأ ماركس و انجلز من ترديد و باستمرار، خلال كل نشاطهم الثوري، فكرا و ممارسة، أن حزب الطبقة هو الأداة و هيئة الأركان التي تعد البروليتاريا للاستيلاء على السلطة السياسية و ممارسة الديكتاتورية البروليتارية لتحطيم كل العقبات و الحواجز التي تحول دون تقدم و تطور قوى الإنتاج³.

3. في رسالة ل "كونراد شميدت" بتاريخ 27 أكتوبر 1890، كتب انجلز: "لماذا ناضل من أجل الديكتاتورية السياسية للبروليتاريا إذا كانت السلطة السياسية عاجزة اقتصاديا؟ العنف (الذي هو سلطة الدولة)، هو أيضا قوة اقتصادية". ص 493. المجلد 37. الأعمال الكاملة. الطبعة الألمانية. برلين 1967.

البروليتارية هي أداة لسحق البرجوازية و إنهاء وجودها و كل موروثها الذي ساهم في سيطرتها⁵:

"على الطبقة العاملة الاستيلاء على السلطة السياسية للدولة، كي تسحق من خلالها و عن طريقها، مقاومة الطبقة الرأسمالية إعادة تنظيم الهياكل الاجتماعية" (أنظر البيان الشيوعي).

ما يعتمل في قضية السلطة السياسية إذن، هو كل شيء أو لا شيء، و الاستيلاء عليها هو عمل رئيسي و ضروري للحزب الشيوعي. فالدولة، عمليا، هي الوسيلة و الأداة لإطلاق ديناميكية القوة و العنف الموجه نحو المستقبل من أجل تحطيم كل القيود و الحواجز المتعارضة و الكابحة للتطور اللاحق لقوى الإنتاج. هذا الاستيلاء لا يعني تغيير عناصر من السلطة بأخرى حتى و إن كانت هذه الأخيرة بروليتاريا و ذات القيم الشيوعية الثورية، كما لا يعني تغيير قوانين بأخرى تقدمية و ثورية مع الإبقاء على أشكال و بنى النظام القديم للاقتصاد و السياسة. بل هي دولة جديدة و أجهزة جديدة في كل المواقع. دولة البروليتاريا تتبلور خلال الثورة

البشرية"، مع منح هذه البرجوازية و دولتها، الدعم الإيديولوجي و القوة المعنوية في صراعها ضد الجماهير المستغلة.

ديكتاتورية البروليتاريا لن تكون ديمقراطية ل "الأغنياء و الفقراء"، بل هي ديمقراطية من نوع جديد، ديمقراطية للبروليتاريين و غير المالكين بشكل عام، و ديكتاتورية من نوع جديد، ضد البرجوازية، لنزع الملكية عنها و تحطيمها، و إخضاعها بالقوة و العنف للعلاقات الاجتماعية الجديدة: الاشتراكية.

الديكتاتورية البروليتارية هي أداة الثورة لتحقيق الانتصار الكلي و الشامل للاشتراكية، و هي التجسيد الفعلي و نقطة الارتكاز الأساسية للثورة، و من دونها لا يمكن بأي حال سحق طبقة البرجوازية و الحفاظ على استمرار انتصار الثورة و المضي بها حتى تحقيق النصر النهائي للاشتراكية. فالثورة لن تكون قادرة على ذلك، في مرحلة محددة من تطورها، إذا لم تبني هذه الأداة الديكتاتورية. لأن الاستيلاء على السلطة ما هو إلا بداية المهمة التاريخية للبروليتاريا، و البرجوازية المطاح بسلطتها، و لأسباب تاريخية متعددة و مختلفة، قد تبقى و لفترة طويلة أقوى من البروليتاريا التي أطاحت بها. لذا، على ديكتاتورية البروليتاريا أن تكسر كليا مقاومة البرجوازية و محاربة كل محاولات ترميمها و إعادة إصلاحها. فالدولة

5. ديكتاتورية البروليتاريا، يقول لينين، "هي نضال عنيد، دموي و غير دموي، عنيف و سلمي، عسكري و اقتصادي، تعليمي و تسييري، ضد قوى و عادات المجتمع القديم. قوة العادة لدى الملايين من الناس هي قوة فظيعة".

البروليتارية العنيفة عن طريق هدم نظام البرجوازية و على أنقاض دولتها، و خلال عملية التحويل الاشتراكية.

في هذا الاتجاه عبر لينين (أنظر "الدولة و الثورة") عن انشغال الاشتراكيين الطوباويين باكتشاف الأشكال السياسية التي فيها سيحدث التحول الاشتراكي للمجتمع، و عن تهرب الفوضويين من سؤال الأشكال السياسية بشكل عام. في حين، أن انتهازي الاشتراكية الديمقراطية، تقبلوا الأشكال السياسية البرجوازية، دولة الديمقراطية البرلمانية، كحد لا يمكن تجاوزه و اعتبروا كل محاولة لهدم هذا الأشكال هي فوضوية⁶.

إنه من الخطأ الاعتقاد أن الاستيلاء على السلطة قد يؤطر على طريق البرلمانية (حتى و إن رافقه نضال "الشوارع" و الحرب "الخارجية"). هذه العملية، هي في تطورهما، تؤدي إلى وضع محجوز و محافظ، بل تسهل به "العودة" إلى أشكال التنظيم الاجتماعي. الاقتصادي التي بها و فيها تسيطر طبقة البرجوازية. فالوصول بها، طريق البرلمانية، إلى السلطة، لن يكون

6. في مقالة لينين، نشرت ب 23 أبريل 1917، حدد لينين الفرق الذي ميز البلاشفة عن المناشفة. حيث يقول الطرح المنشفي أنه من السابق لأوانه التفكير و اتخاذ خطوات عملية من أجل الاشتراكية، و أن الاستيلاء على السلطة ضد الرأسماليين سيكون من الفوضى. في حين دافع الطرح البلشفي على وجوب اتخاذ "السوفييت" و على الفور كل الخطوات العملية لضمان انتصار الاشتراكية، و أن، بتعبير لينين، "الفوضى هي نفي سلطة الدولة، في حين أن ممثلي السوفييت العمال و الجنود هو سلطة دولة".

فعليا عملا ثوريا، أي لن يكون قادرا بالفعل على كنس و بالعنف كل العلاقات البورجوازية، كما لن يكون قادرا على إطلاق ديناميكية عنيفة للتثوير الاقتصادي الضروري لسحق كل علاقات الإنتاج الاجتماعي التي أرستها تاريخيا، خلال سيطرتها، طبقة البرجوازية. إن عملية المرور هذه، و ليس الاستيلاء هنا، إلى السلطة عبر طريق البرلمانية، تؤدي عمليا إلى القبول بتمرير جهاز الدولة من طبقة إلى أخرى، و كأن هذا الجهاز هو مفتوح، يقبل بمضامين اجتماعية مختلفة⁷ و متناقضة، و على رأسها المضمون الاجتماعي البروليتاري، النقيض الأساسي للمضمون الاجتماعي البرجوازي. فالدولة من خلال هذا الطريق، تظهر و كأنها خارج كل الطبقات و صراعاتها التاريخية، و ليست دولة طبقة محددة، هي دولة طبقة البرجوازية.

7. أضف إلى أصحاب هذا الطريق، مطبلي إيديولوجية "التداول السلمي على السلطة"، و كأن هذه الأخيرة لا تحمل أي مضمون طبقي، و أنها ليست الشكل السياسي الذي به تحكم الطبقات السائدة.

إيديولوجية "التداول السلمي" هذه، تحاول ما أمكن إخفاء ترابط السلطة السياسية العضوي ب(سيطرة) الطبقات السائدة. فهي، هذه الإيديولوجية، لا تهدف حقيقة في إلحاحها على "التداول السلمي"، إلا إلى التذبير السياسي الانتهازي لتلك السيادة الطبقية و القبول بالرأسمالية (كهدف نهائي للمجتمعات البشرية).

الممارسة⁹، هو ما أدى بهم، و يؤدي بمن يلفون لفهم، إلى المزيد من "الاحترام" الجبان للقانونية و طلب الترخيص ب "العمل الثوري" ...كذا.

فليнин، لم يستعمل عمليا الدخول للبرلمان للاستيلاء على السلطة، و لا للتحطيم التدريجي لمؤسسات الدولة القائمة من الداخل، أو للحصول على بعض المقاعد في الحكومة البرجوازية، بل من أجل رفع صوت الثورة البروليتارية و إعداد الجماهير العمالية و الفلاحية للهجوم على الدولة و حل البرلمان بالقوة و العنف¹⁰.

9. أنظر للتعميق الخلاق للينين في فلسفة الديالكتيك المادي، حيث قام، و على خطى ماركس، بدمج الممارسة في التعريف الشامل للشيء، و وضعها كميّار حقيقة و محدد عملي لعلاقة الشيء بما هو ضروري للإنسان، ف "الحقيقة (يقول لينين هنا) دائماً ملموسة". و الحقيقة الملموسة للواقع الملموس للبروليتاريا و سيرورة معرفة هذه الأخيرة، في ممارستها، بها (المعرفة البروليتارية)، هما غيرهما عند البرجوازية و أذيا لها الصغار من الانتهازيين. من هذا المنطلق الفلسفي المادي، هاجم لينين أصحاب النظرية العقائدية (الدوغمائية)، مشددا على أن النظرية لا تتشكل إلا في ارتباط وثيق بممارسة حركة جماهيرية ثورية فعليا. لأنها، النظرية، يجب أن تخدم الممارسة و أن تجيب على الأسئلة و القضايا التي تقدمها هذه الممارسة التي بها و عن طريقها يتم التحقق منها. كما شدد لينين بقوة على أن الممارسة من دون نظرية ثورية هي ممارسة عمياء (العفوية و هي نظرية الانتهازية).

10. من الأخطاء الفاتلة ل "الأممية الثانية" التي تطورت بشكل انتهازي و بتكيف مع البرجوازية، و التي ارتدت أحزابها و تخلفت كما رفضت المهام الثورية، هو استخدامها و اعتبارها طريق البرلمانية هو الطريق الوحيد و الممكن في الوقت الذي انفتحت فيه طريق النضال الثوري و احتلت أشكاله الغير البرلمانية صدارة النضال.

هذا النهج، لا يميز بين ديكتاتورية الدولة البرجوازية التي هي ديكتاتورية الاستغلال و الاضطهاد و الاستعباد، و بين ديكتاتورية الدولة البروليتارية التي هي ديكتاتورية تدمير هذا الاستغلال و التحرير من ذاك الاستعباد. ففي الوقت الذي فيه تميل الدولة البرجوازية إلى الحفاظ ما أمكن على الاستغلال و الاضطهاد، بل تعميقه و توسيعه، تكمن، لدى البروليتاريا، و تنمو عن طريق حزبها الشيوعي الثوري الذي يحمل مبادئ و أهداف مجتمع المستقبل، مجتمع الشيوعية، الإرادة السياسية العنيفة و النقيضة لتحطيم أولا دولة العدو الطبقي و أخذ رأس الدولة الجديدة، دولة ديكتاتورية البروليتاريا لتسريع تدمير الاستغلال و الاضطهاد⁸. هذا الاختلاف بين مضمون و أشكال الدولتين الديكتاتوريتين هو نوعي، شامل و لا يقبل التجزئ، و عدم التمييز بينهما، الذي يجد أصوله لدى أصحابه، المناشفة الجدد، في عجزهم دمج وجهة النظر البروليتارية الثورية في

8. مفتاح التثوير الاقتصادي هو سياسي في الدولة التي هي أداة العنف المنظم، كوسيلة للحزب لفرض هذا التثوير و توجيه الديناميكية الاجتماعية نحو الاشتراكية.

ديكتاتورية البروليتاريا إذن، يستحيل أن تكون نتيجة التطور السلمي لنظام البرجوازية و ديمقراطيتها، فهي لا يمكن أن تكون إلا تدميرا لآلة الدولة البرجوازية. الثورة العنيفة هي قانون لا مفر منه لحركة البروليتاريا الثورية.

على نقيض الفكر البرجوازي، الفكر اللبرالي و "منوعاته" المشوهة التي يستبطنها استيلا با صغار البرجوازية، لا تعتبر الماركسية جهاز الدولة ضرورة تاريخية أبدية، بل تضعه في سيرورته التناقضية، سيرورة الصراع بين ضرورة وجوده المرتبطة بالسيطرة الطبقية، و بين ضرورة انتفائه المرتبطة بإنهاء علاقات السيطرة الطبقية هذه. إنها سيرورة تحول الشيء إلى نقيضه. لذا، كان انمحاء الدولة في مركز مبدأ ديكتاتورية البروليتاريا التي من دونها لا يمكن السيطرة و لا سحق البرجوازية و علاقاتها الاجتماعية. و بشكل عام، لا يمكن من دونها تحطيم العلاقات الطبقية التي بتحطيمها تحطم البروليتاريا نفسها و تنتفي معها ضرورة وجود جهاز الدولة. فالهدف الأساسي لهذا الجهاز الذي هو جزء من بنية العنف الفوقية، هو تأمين و ضمان عن طريق العنف و القهر الاقتصادي لأغلبية العمال من طرف أقلية من الرأسماليين، و باندحار و انمحاء هذه الأقلية المستغلة عن طريق ديكتاتورية البروليتاريا، تنمحي ضرورة وجود سلطة مضطهدة التي هي

الدولة. فمرحلة الدولة الديكتاتورية البروليتارية هي مرحلة انتقالية، سيرورة، ضرورتها من ضرورة انتفاء الأقلية المستغلة و جهاز الدولة¹¹.

من المستحيل إذن، تحقيق ديكتاتورية البروليتاريا على طريق الانتصار الشامل للاشتراكية من دون الصراع الطبقي من أجل السلطة السياسية للدولة، و "ليس للبروليتاريا في صراعها من أجل السلطة غير سلاح التنظيم"¹². هذه الحقيقة التاريخية، حقيقة استحالة قيادة و توجيه البروليتاريا و جماهير الشعب للقيام و إنجاز الثورة في الاستيلاء على السلطة السياسية و رفع البروليتاريا إلى طبقة مهيمنة من دون تنظيم بروليتاري ثوري، أكدها تاريخ الثورات البروليتارية في روسيا و الصين...

فلم تكن لتنجح الثورة لو لم يكن هناك تنظيم ثوري فعليا و منضبط، متماسك داخليا و مندمج عضويا بالطبقة العاملة و حاصل على ثقته و ثقة جماهير الفلاحين و دعمهما الشامل و اللامشروط. حزب على استعداد دائم لمتابعة خطوات المعركة خطوة خطوة، يعمل على بناء التماسك وسط البروليتاريا و تحصينها ضد تلاعبات و تأثيرات قوى البرجوازية الصغيرة. حزب بروليتاري طليعي يركز كل طاقات و جهد جماهير الشعب على أهداف

11 . يطلق لينين على الدولة في هذه المرحلة الانتقالية ب "دولة بسعر متهاون" أو " نصف دولة" كما وصفها ماركس.

12 . "خطوة للأمام، خطوتان للوراء" - لينين.

البلشفي¹⁴، ما يطلقون عليه "الانضباط الأعمى" (أو ما ينعتونه بـ "الاستبداد الحزبي" و أحيانا بـ "الستالينية")¹⁵، في إظهارهم اللبرالي لورقة

14. إن التهجم على طرق و أشكال تنظيم الحزب البلشفي هو في حقيقته تهجم على الخطوط اللينينية الأساسية التي نهجها الحزب البلشفي.

15. في إحدى ردوده على زعماء الخط المنشفي، يقول لينين: "تنظيم الحزب يبدو له كالة جهنمية،" "خضوع" الجزء للكل و الأقلية للأغلبية تبدو له كـ "استعباد"... تقسيم العمل تحت قيادة جهاز مركزي تدفعه في ضجة. صياح تراجيدي. كوميدي ضد تحويل الناس إلى "تروس و نوابض"...". موقف الخط الانتهازي هنا، هو تعبير مركز عن منطق فكري حلقي و فرداني برجوازي صغير، يعتبر نفسه فوق الانضباط الذي يلزم، بالنسبة له، فقط "الجماهير الواسعة" و ليس "روح النخبة".

حقيقة، ما يفرع "روح النخبة" هذه، و يعري درجة و عمق استيلائها اللبرالي، هو أن تكون العناصر البروليتارية الثورية في موقع القيادة، سواء وسط الحزب، أو قيادة حزبها البروليتاري لجماهير الشعب، لأنها لا تستطيع أن تتقبل، إيديولوجيا، بسبب من استيلائها، أن يفرض عليها تأدية واجباتها و التزاماتها الحزبية من طرف من تعتقد أنهم هم من يفترض أن يتبعونها و يعملوا على تصريف أفكارها، مواقفها و أطروحاتها. في هذا الاتجاه، يقول الشيوعي الثوري لينين: "على نحو أن يتشكل لدينا حزب حقيقي، على العامل الواعي أن يتعلم التمييز بين سيكولوجية مكافحي جيش البروليتاريا و سيكولوجية المثقف البرجوازي الذي يستعرض العبارات الفوضوية. يجب عليه (العامل الواعي) أن يتعلم أن يفرض تأدية الواجبات المتعينة على أعضاء الحزب - ليس فقط من طرف الأعضاء العاديين للحزب، و لكن أيضا تأديتها من طرف "من هم فوق". حديث لينين عن تقسيم العمل وسط الحزب، يستند إلى فكرة أن مختلف أشكال النشاط و العمل الثوري تتطلب قدرات مختلفة و متنوعة، من هنا ضرورة هذا التقسيم من أجل تحقيق أقصى النتائج الممكنة، كميا و نوعيا و زمنيا، تحت قيادة جهاز مركزي ينظم عملية تقسيم و توزيع العمل الثوري في إطار

جد محددة - تدمير جهاز الدولة البرجوازية، الاستيلاء على وسائل الإنتاج و تنظيمها، بناء سلطة جديدة -. في غياب حزب من هذا النوع، فإن هجومات الجماهير الأكثر قوة و شجاعة، و حتى انتصاراتها الأكثر أهمية و مردودية، لن تعرف أي انتصار سياسي تحرري فعلي و لا أي تحول اجتماعي ثوري.

فالحزب هو الذي يعمل على زرع روح الانضباط و التنظيم وسط جماهير البروليتاريا، و هو الذي يعمل على تحويل الانفجارات العمالية و الجماهيرية المعممة¹³ إلى هجمات ناجحة ضد الدولة البرجوازية، قلب النظام البرجوازي، و تحويلها إلى دولة الديكتاتورية البروليتارية، و هو الذي يعمل على المحافظة عليها و تعزيزها و تطويرها لضمان تهيئ الشروط المادية و الفكرية الضرورية للانتصار الشامل للاشتراكية. فالبروليتاريا في صراعها العنيد و الصعب ضد البرجوازية و جهاز دولتها، هي فيه محتاجة بشكل مصيري لحزب من هذا النوع، حزب بروليتاري حديدي منغرس في الصراع.

إن الحديث عن الانضباط الحديدي وسط حزب طليعي ثوري فعليا للبروليتاريا، لا يعني، و بالصيغة التي بها تتهجم البرجوازية و أذيلها من الانتهازيين و خونة البروليتاريا على طرق و أشكال تنظيم الحزب الثوري

13. "لن يصبح النضال العفوي للبروليتاريا نضالا طبقيا حقيقيا للبروليتاريا، إلا حين تقوده منظمة قوية من الثوريين"، لينين.

تجربة عصيبة تيسرها النظرية الثورية السديدة التي هي ليست عقيدة، بل لا تشكل نهائياً إلى بارتباط وثيق مع ممارسة حركة جماهيرية و ثورية فعليا..¹⁶.

شروط الانضباط هذه، تُبرز بوضوح هنا الخط الجماهيري للحزب الطليعي، وهي كذلك هنا رد حاسم على من يلصق به الانقلابية و البلانكية. في هذا الاتجاه، يؤكد مرة أخرى لينين: "حين ترفض أغلبية الشعب الاستيلاء على السلطة، فالأقلية مهما كانت ثورية و ذكية، فإنها لن تستطيع إجبار الشعب على القيام بذلك"، و أنه: "لا يمكن أن نمر فوق رؤوس الناس... نحن البلاشفة يجب أن نطرح و نفسر بصبر و بقوة و بصرامة مواقفنا للعمال و الفلاحين. هذا هو الطريق الوحيد لقيادة الشعب لفهم أفكارنا و استخلاص الدروس من تجاربه و التعلم من خبراته و للاستيلاء فعلا على السلطة"¹⁷.

ما يسمونها ب"الديمقراطية الداخلية" و "حرية التعبير" وسط الحزب. بل هو، الانضباط البروليتاري، الضامن و هو التجسيد المادي لوحدة الإرادة الجماعية الحرة و لوحدة الحركة و الفعل وسط الحزب و كذا ارتباطات هذا الأخير بحركة جماهير الشعب. كما، في الوقت ذاته، لا يمكن تصور هذا الانضباط من دون تلك الوحدة في الإرادة الجماعية الحرة و الفعل المنظم. فهو، في مضمونه البلشفي الثوري، يشترط: "أولا (يقول قائد البلشفية الثورية)، و عي الطليعة البروليتارية و تفانيها للثورة، حزمها و روح التضحية لديها و شجاعتها. و من ثم قدرتها على الارتباط... الانصهار إلى حد ما مع الجماهير الواسعة للعمال، الجماهير البروليتارية في المقام الأول، و أيضا جماهير العاملين الغير البروليتاريين. ثالثا، سداة القيادة السياسية التي تمارسها هذه الطليعة، سداة استراتيجيتها و تكتيكها السياسيين، شريطة أن تقتنع أوسع الجماهير، عن طريق تجربتها، بها.

من دون توفر هذه الشروط، في حزب ثوري قادر فعلا على أن يكون حزب الطبقة الطليعية المدعوة للإطاحة بالبرجوازية و تحويل المجتمع، يستحيل تحقيق الانضباط. و من دونها، تصبح حتما كل محاولات لتثبيت الانضباط، عبارات فارغة و لغط... من جهة أخرى، لا يمكن لهذه الشروط أن تنشأ هكذا فجأة و مرة واحدة. فهي لا تنشأ إلا من خلال عمل طويل و

من الانضباط البروليتاري لكل الأعضاء.

16. الانضباط البروليتاري هو التحقق المادي لجذلية الوحدة الإيديولوجية / الفكر و وحدة الفعل / الممارسة

17. على ضوء مقولة لينين، و جب التأكيد على أن خلاصات التجربة و مطالب الجماهير، استنادا إلى النظرية الثورية، هي عناصر أساسية في تطوير الخط السياسي السديد. فعلى ضوء الممارسة الاجتماعية يغتني هذا الخط باستمرار و يتقدم متخلصا من كل المفاهيم التي لا تتماشى و وجهة النظر البروليتارية.

"فقط من خلال اكتساب الجماهير، إذا كنا حقا قادرين على اكتسابها، سنقدم و سنمنح أساسا متينا و صلبا لانتصار النضال الطبقي البروليتاري" (لينين).

يكاد يكون من المستحيل بالنسبة لكتلة "مثقفي" صغار البرجوازية، أن تعي و تستوعب أهمية الانضباط الحزبي الثوري، و الدور المصيري لوجود حزب ثوري للبروليتاريا. فتلك الكتلة "المثقفة" من صغار البرجوازيين، و على الخصوص ذاك البعض منها الذي ينسب حظه للماركسية، لم تكن لهم، و لن تكون لهم القدرة على استيعاب و فهم الدور التاريخي و المصيري الذي اضطلع به الحزب الثوري البلشفي في كل مراحل عمله الثوري. فهم غير قادرين، بسبب من نزعتهم الذاتية و عجفهم اللبرالية اللتين تطبعا، استيلا، أيديولوجيتهم من خضوعهم لأسيادهم الرأسماليين، إلا على رؤية "قادة و حشد من الأتباع"، سواء وسط الحزب، أو في علاقة الحزب بالجماهير. فمن هنا رفضهم العنيد، على طريقة "الأنتلجنسيا" ذات النزعة الفردانية¹⁸، الإقرار و الاعتراف بدور الحزب و أهمية انضباطه الصارم في

18. "كل تنظيم و انضباط يبدو لدى فردانية جنس المثقف، استعبادا" (لينين). في إحدى رسائله ل "غوركي" (7 فبراير 1908) وصفهم لينين بقمامة البرجوازية الصغيرة التي يجب على الحزب تصفية ذاته منهم. و نجد في رسالة أخرى وجهها ل "غوركي" (15 شتبر 1917) أن تلك "الأنتلجنسيا" يعتقدون أنفسهم أنهم أسياذ الأمة، لكن في واقع الأمر، هم قذارتها". من خصائص "أنتلجنسيا" البرجوازية الصغيرة مثلا إرجاع الصراع حول القضايا السياسية و

الصراع ضد طبقة البرجوازية و جهاز دولتها، رفضهم لدور هذه الأداة الفريدة من نوعها التي تشكلت بقيادة البلاشفة، و على رأسهم لينين، و التي قادت جماهير الشعب الروسي في خضم الصعوبات لإقامة ديكتاتورية البروليتاريا، و إطلاق عملية البناء الاشتراكية في بلد "متخلف". عجزهم و رفضهم ذاك، هو بالضبط ما دفع قائد البلاشفة لينين مرارا و تكرارا، الإصرار على الدور الهام و المصيري الذي يضطلع به، ارتباطا بجماهير الشعب، الحزب البروليتاري ذو الانضباط الحديدي¹⁹.

لقد عمل البلاشفة بقيادة لينين على بناء حزب ثوري مركزي، قادر على مواصلة نضاله في أحلك ظروف القمع و الاعتقالات، و تجنب الضربات و الاختراقات البوليسية²⁰، لأنه يستحيل بناء حزب من هذا النوع، و بناؤه

التنظيمية إلى مستوى فردي و شخصي. ذاتي، كصراع بين أفراد. فهم غير قادرين، انطلاقا من نزعتهم الفردانية ذات المنبع البرجوازي اللبرالي، إلا على النظر إليه في ذاك الشكل "الذاتوي"، و ليس كصراع بين خطوط سياسية و تنظيمية.

19. "من يُضعف و لو قليلا الانضباط الحديدي وسط حزب البروليتاريا (و على الخصوص خلال ديكتاتوريتها) هو يعمل فعلا على مساعدة البرجوازية ضد البروليتاريا". (لينين)

20. تم استخدام، على يد "زوباتوف" (رئيس الجهاز البوليسي)، تقنية ما سمي ب "العميل المحرض" الذي يعمل ليس فقط على اختراق تنظيمات البلاشفة، بل حتى على قيادة الإضرابات و رفع المطالب الاجتماعية و كذا السياسية مع منع توجيه سهامها اتجاه القيصر. أنظر مثلا ما قاله ستالين في حق شخصية "كابون" الذي "قاد" إضراب الأحد الدامي لسنة 1905، حيث اعتبره عميلا محرضا يعمل لحساب نظام القيصر ("تاريخ الحزب الشيوعي

فحسب صيغة الخط البلشفي الثوري بقيادة لينين، لا يمكن أن يصبح عضوا (الانضمام) في الحزب إلا بتوفر الشروط الثلاثة: تقبل برنامج الحزب، الدعم المالي للحزب و الانتماء إلى إحدى تنظيمات الحزب (يعني المساهمة النشيطة في التنظيم).

أما بالنسبة للخط الانتهازي بقيادة "مارتوف"، فيكفي فقط توفر الشرطين الأولين للانتساب للحزب، في حين لا لزوم للشرط الثالث بالنسبة له على الإطلاق، و يمكن الاستغناء عنه.

صيغة المنظور البلشفي تنبع من اعتباره الحزب فصيلة منظمة طليعية للطبقة العاملة، و هو بهذا الشكل، لا يمكن لأي كان أن يصبح عضوا من دون النضال في إحدى تنظيماته. بالعكس، يصبح عضوا في الحزب عن طريق ذاك النضال من داخل تلك التنظيمات. و بالتالي ضرورة الانضباط للحزب. أما بالنسبة للخط الانتهازي، فيمكن الانخراط في الحزب من دون التواجد و النضال في إحدى تنظيماته، أي أن مسألة الانضباط تصبح غير إلزامية (فوضوية). و هو ما يعني فتح الباب لكل أنواع الانتهازية و كل العناصر التخريبية و المتذبذبة و غير البروليتارية (أن ينضم للحزب تلقائيا مثلا كل من شارك في عمل إضرابي، كل مثقف متعاطف مع الحزب...)، ليتحول معها الحزب من تنظيم متجانس، متماسك و مناضل للطبقة العاملة، ذو الانضباط الصارم، إلى حزب غير متجانس، غير منظم و منفتح

ضرورة مصيرية، من دون أن يتعرض مناضلوه للاعتقالات المتكررة على يد الأجهزة السرية. هكذا رفض لينين أن تكون عضوية الحزب مفتوحة لكل من يرغب في ذلك (مختلف لجان الحزب بالمدن تم اختيارهم من طرف اللجنة المركزية) و هو الأمر الذي انفجر في المؤتمر الثاني²¹ لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي بلندن 1903 بخصوص بعض القضايا التنظيمية الأساسية التي تركز فيها الصراع الرئيسي بين الخطين²² حول النظام الأساسي للحزب و اختيار المسؤولين. و بالتحديد حول صيغة الفقرة الأولى التي تتناول عضوية الحزب: من يمكنه الانضمام (العضوية) للحزب؟ كيف ستكون طبيعة و تركيبة الحزب؟

السوفيياتي (البلشفي) "ص 72، - 1952، برلين الشرقية. حذفت هذه الفقرة الخاصة ب"كابون" في طبعة 1960). في حين لا نجد هذا الحسم في "عمالة" "كابون" في الفقرات التي تحدث فيها لينين حوله في العدد الرابع من "إلى الأمام" بخصوص أحداث الأحد الدامي. 21. كانت النقطة الرئيسية لجدول أعمال المؤتمر هي: 1 - اعتماد برنامج الحزب. 2 - اعتماد النظام الأساسي للحزب. 3 - اختيار المسؤولين.

و هو المؤتمر الذي فيه عارض الانتهازيون إدراج قضية ديكتاتورية البروليتاريا في برنامج الحزب و المطالب الملحة المتعلقة بالمسألة الفلاحية و حق الأمم في تقرير المصير.

22. كان الخط الثوري بقيادة لينين و بدعم من "بليخانوف" و بعض "الإسكريين"، في حين كان الخط الانتهازي بقيادة "مارتوف" مدعوما من طرف "تروتسكي" و بعض "الإسكريين" المتذبذبين، و في الوسط بعض معادي "الإسكرا": الإقتصاديين و "البوند".

إن ضرورة وجود حزب بروليتاري طليعي تنبع من ضرورة خوض هذا النوع من العمل السياسي الذي يستحيل أن تخوضه جماهير العمال في ظل وضع الاستغلال و فوضى المنافسة التي تحكم نظام الرأسمالية، حيث تكون البروليتاريا منقسمة، مثقلة و مسحوقة في عملها الاستعبادي و الشاق لصالح حفنة من الرأسماليين الذين يعرضونها للاستيلاء و لتشيء كل العلاقات البشرية، ملقى بها دائما في أحياء القهر و التهميش و البؤس و التجهيل و الانحطاط. فهي، البروليتاريا، لا يمكنها و هي في وضعها المعمم دوليا هذا، سواء و هي تنخرط في نضالاتها دفاعا عن "مكتسباتها" و مصالحها ضد البرجوازية و جهاز دولتها، أو في فترات تراجع حركة الجماهير و تصاعد تأثيرات البرجوازية الصغيرة وسطها²⁴، بلوغ و عي شامل بواقعها كطبقة و واقع الاستغلال و الاضطهاد الرأسمالي، إلا عن طريق الممارسة السياسية المنظمة. و بتدقيق أكثر، لن يبلغ هذا الوعي الطبقي إلا فئة قليلة منها تكون على استعداد لإطلاق و مواصلة العمل السياسي خصوصا في فترات التراجع تلك. من هنا تبرز الضرورة المادية لحزب بروليتاري طليعي، حزب يعمل على بناء الوحدة الإيديولوجية للبروليتاريا و القائمة على

من نوع برجوازي. أي تحويله من فصيلة طليعية للطبقة العاملة إلى "فصيلة" ذيلية، مفككة و تابعة.

صيغة الخط الانتهازي هذه لا تفتح الباب فقط في وجه كل أنواع الانتهازية و الفوضوية، بل هي في العمق، تجرد الطبقة العاملة من هيئة أركانها السياسية، حزبها البروليتاري الطليعي²³.

في رده على صيغة "مارتوف"، يقول لينين: "نحن حزب الطبقة، و لهذا فإن كل الطبقة (...) يجب أن تتحرك تحت قيادة حزبنا. يجب أن ترص ما أمكن من صفوفها حوله. لكن سيكون من الذيلية - التبعية، التفكير و الاعتقاد تحت سيطرة الرأسمالية، أن كل الطبقة تقريبا، أو كلها إطلاقا، سترتقي يوما ما إلى مستوى بلوغ درجة و عي و نشاط فصيلتها الطليعية... سيكون خداعا للنفس تجاهل ضخامة مهامنا.. تجاهل الفرق بين فصيلة الطليعة و الجماهير التي تلتف و تنجذب حولها، تجاهل الواجب الثابت للفصيلة الطليعية في رفع طبقات واسعة إلى هذا المستوى المتقدم..".

23. إن الحزب البروليتاري هو الذي مكن البروليتاريا الروسية، بعد استيعابها لتجاربها و لدروس انتفاضة 1905، أن تستولي على السلطة السياسية و تنتظم كطبقة مهيمنة في 1917. لم يكن تنظيما في الشكل المبتذل الذي أراده له خونة الاشتراكية و الانتهازيون، بل تنظيما ثوريا صارع للعب دوره القيادي الإيديولوجي و السياسي معتمدا على النظرية الثورية في ارتباط مع نضالات البروليتاريا و الفلاحين.

24. حين يتركز مثلا اهتمام العامل بصورة رئيسية على المسائل الداخلية لوحدة العمل / الإنتاج، فالانتهازي (سياسيا) يُصبح "على وجه الحصر" نقابيا.

فيها لم تتطور الرأسمالية بما فيه الكفاية و بالشكل الذي يوفر للبروليتاريا فرصة النجاح و إطلاق و على أوسع نطاق شرارة الثورة البروليتارية. و التي على خطاها، تلك الخطوط الماركسية الأساسية، وضع لينين الأسس الاستراتيجية و التكتيكية الثوريين للبروليتاريا بالبلدان المستعمرة و الشبه المستعمرة مرحلة الرأسمالية الإمبريالية.

هكذا، بخصوص ألمانيا²⁶، تم تحديد التشكيلة الطبقة المتكونة من نبلاء الإقطاع، البرجوازية، البرجوازية الصغيرة و الفلاحين و البروليتاريا. هذه الأخيرة، كما يقول انجلز، هي "ضعيفة كي تأمل القفز على المرحلة البرجوازية و الاستيلاء لوحدها على السلطة"، في نفس الوقت، كانت قوية مما كانت عليه البروليتاريا في الثورة الفرنسية للقرن الثامن عشر و انجلترا للقرن السابع عشر (أنظر البيان الشيوعي). أما طبقة البرجوازية فلم تكن قوية بما فيه الكفاية لإخضاع الطبقات الأخرى تحت سيادتها حيث تميزت بضعفها أمام سلطة الإقطاع الاستبدادية²⁷. يقول ماركس، في "الجريدة الرينانية الجديدة" (1848)، في حق البرجوازية الألمانية: "عديمة الإيمان بنفسها، عديمة الإيمان بالشعب، متدمرة من الكبار، مرتجفة أمام

26. بقيت "مؤسسات" الإقطاع بألمانيا إلى حدود سنة 1900، في الوقت الذي فيه تم الحسم مع الإقطاع مثلاً بفرنسا في القرن الثامن عشر.

27. لم تكن في مستوى البرجوازيين الفرنسية و الانجليزية اللتين توفقتا سياسياً على سلطة الإقطاع: فرنسا سنة 1789 و انجلترا سنة 1688.

المبادئ الشيوعية الثورية، و بناء تماسكها المادي بالتنظيم الثوري الذي يضم جماهير العمال لجيش الطبقة العاملة.

3 - في الثورتين الديمقراطية و الاشتراكية

إن المهمة المركزية للحزب البروليتاري الثوري بعد الاستيلاء على السلطة السياسية هي مباشرة عملية بناء الاشتراكية، عن طريق الدولة الجديدة، دولة ديكتاتورية البروليتاريا، فهذه المهام هي انية و مباشرة للأحزاب الشيوعية الثورية في البلدان التي فيها أنجزت البرجوازية ثوراتها و أرسيت أسس نظامها الرأسمالي. أما بالنسبة للبلدان التي لم تنجز فيها البرجوازية ثوراتها و التي انجذبت بالعنف إلى خط الرأسمالية بتطور هذه الأخيرة إلى إمبريالية، فهي تفرض على حركة البروليتاريا الثورية إنجاز مهام الثورة الديمقراطية "البرجوازية" كمقدمة مباشرة للثورة الاشتراكية. هذه الأطروحة البروليتارية الثورية تجد جذورها في بعض الخطوط الأساسية التي وضعتها الماركسية مرحلة الرأسمالية بخصوص البلدان²⁵، و على رأسها ألمانيا، التي

25. هي مجموع البلدان "الأوربية" المتواجدة بعد تحت سلطة الإقطاع الاستبدادية و التي لم تعرف بعد ثوراتها البرجوازية.

على نفس هذا الخط ، جاءت المبادئ التوجيهية²⁹ التي وجهها ماركس للبروليتاريا الثورية الألمانية سنة 1850 حيث يؤكد: "لقد سبق أن قلنا سنة 1848 أن البرجوازية الليبرالية الألمانية ستصل للحكم و ستوجه فورا نفوذها ضد العمال....."، "فالدور الذي لعبته البرجوازية الليبرالية الألمانية سنة 1848 اتجاه الشعب، هذا الدور الخياني - الغادر، ستلعبه البرجوازية الصغيرة الديمقراطية في الثورة المقبلة، و التي تحتل الان نفس الموقع في المعارضة الذي احتلته البرجوازية الليبرالية سابقا.". لهذا دعا ماركس البروليتاريا إلى بناء تنظيمها في استقلالية عن البرجوازية الديمقراطية تقاديا لاستخدامها في الصراع ضد البرجوازية الليبرالية التي غدرت بالفلاحين و البروليتاريا، و تحالفت مع الإقطاع، و كذا تجنباً لتحطيم قوة البروليتاريا

29 . هذه الوثيقة، و المعروفة ب "عريضة اللجنة المركزية لعصبة الشيوعيين"، لها أهمية كبيرة في توضيح وجهة نظر الماركسية في البلدان التي لم تعرف ثورة برجوازية ديمقراطية مع وجود برجوازية ليبرالية ناشئة، برجوازية صغيرة، البروليتاريا و فئات واسعة من الفلاحين تحت سيادة الإقطاع. هذه الوثيقة تم تعميمها بداية وسط المهاجرين السياسيين الألمان، ليتم إدخالها سرا إلى ألمانيا، و التي تمت مصادرتها من طرف الأجهزة البوليسية بعد اكتشافها. ليتم نشرها على صفحات جريدتين برجوازيتين: "جريدة كولونيا" و "جريدة و إعلانات درسندر" بهدف تحذير البرجوازية الليبرالية و التنديد بتكتيك الشيوعيين الثوريين خلال "الثورة البرجوازية الديمقراطية" (الهلع الذي أصاب البرجوازية الليبرالية بعد مجموعة من الكفاحات البروليتارية الثورية). بعد ذلك تم تضمينها كملحق في العمل المنشور سنة 1885: "محاكمة الشيوعيين بكونلون".

الصغار... خائفة من الإعصار العالمي... فاقدة العزيمة في أي مكان ... دون مبادرة...". دون القفز هنا على إعلان²⁸ باريس، ذو التدابير السبعة عشر و الموجه للبروليتاريا الألمانية و البرجوازية الصغيرة و الفلاحين، إبان ثورة 1848 التي "انطلقت" في برلين في 18 مارس، و الذي يقول بعد تحديده لتلك التدابير: "إنه من مصلحة البرجوازية الصغيرة و الفلاحين، و البروليتاريا الألمانية العمل بكل قوة لتنفيذ هذه الإجراءات - التدابير. لأنه فقط من خلال تنفيذ و تحقيق هذه التدابير، يستطيع الملايين من الناس الذين يتم استغلالهم من طرف عدد ضئيل من المستغلين الذين سيلجؤون للقمع للحفاظ على استغلالهم، تحقيق مكتسباتهم و تحصيل السلطة التي تعود لهم كونهم منتجي كل الثروات".

28 . جاء هذا الإعلان بعد المعارضة الشديدة لماركس و انجلز لمحاولة "هيروغ" و "فان بورنستيدت" تكوين مجموعة مسلحة من المهاجرين و القيام بغارات وسط ألمانيا (الرفض الماركسي القاطع لأي عمل بلانكي). فالإعلان يحمل تاريخ 21 و 29 مارس و تم إمضاؤه من طرف ماركس، انجلز، "شابز"، "باور"، "مول" و "وولف". نجد فيه مثلاً: "إعلان ألمانيا كلها واحدة، جمهورية غير قابلة للتجزئ"، "إلغاء من دون تعويض، لكل الرسوم الإقطاعية و الضرائب و الأعشار التي تثقل الفلاحين...". "كل المقالع و المناجم تصبح في ملكية الدولة...". مكان المصارف الخاصة، مصرف واحد للدولة...".

الثورية. فدعاها في حالة نجاح الثورة إلى تشكيل حكومتها العمالية الثورية الخاصة إلى جانب الحكومة الجديدة، و القيام "فورا بما هو ضروري لتسليح البروليتاريا" و "أن ينظموا في جيش بروليتاري مستقل ذاتيا له قواده وهيئة أركانه العامة". كما حدد لها خطتها في "التحالف مع البروليتاريا الريفية" و "مباشرة بعد الانتصار، لا يجب أن يتجه حذر البروليتاريا ضد الحزب الرجعي المهزوم، بل ضد حلفائها، أي ضد الحزب الذي يريد استغلال النصر لوحده فقط". هذا التكتيك البروليتاري الثوري انكشف جوهره بوضوح شديد، و تحققه العميق في التجربة البلشفية الثورية بقيادة لينين الذي استوعب أكثر من غيره المضمون الماركسي في الربط الديالكتيكي بين الثورتين الديمقراطية و الاشتراكية: "في حين (يقول دائما ماركس) تريد البرجوازية الديمقراطية إنهاء الثورة بأسرع وقت ممكن و تحقيق معظم هذه التدابير، فمن مصلحتنا و من مهمتنا أن نجعل الثورة متواصلة"³⁰، بهدف "أن تطرد كل الطبقات من السلطة، و تستولي عليها

هكذا عمل لينين على تحليل التشكيلة الطبقة³¹ بروسيا التي كانت مقيدة بأنماط إنتاج مختلفة و سابقة على الرأسمالية، و في نفس الوقت تعرف سيرورة تطور اقتصاد السوق و صعود الرأسمالية (وحدات صناعية بالمدن الكبرى) بسبب الاستثمارات و دخول الرساميل الخارجية. في هذا الاتجاه، استطاع لينين القبض على نقط التحول الذي عرفته الرأسمالية: "ينبغي علينا أن نتناول بوجه خاص ذلك الدور الذي يلعبه تصدير رأس المال في إنشاء شبكة التبعية والترابط العالمية للرأسمال المالي"، حيث عرفت الرأسمالية تطورا إلى نظام عالمي من الاضطهاد الاستعماري و الاستعباد المالي لأغلبية البشرية من طرف فئات قليلة من الدول الرأسمالية

لتعمل بعد ذلك، البروليتاريا، وفق الطرح الذيلي، على النضال و الكفاح و القتال لتسقط من عملت قبل ذلك على مساعدتهم و إيصالهم إلى السلطة. منتهى الهلوسة الإيديولوجية تلك التي تدعو البروليتاريا اليوم، من أجل تحررها، مساعدة مصاصي دماءها و العمل على إيصالهم إلى السلطة السياسية.

31. نقصد كتاب "تطور الرأسمالية بروسيا" الذي بدأ فيه العمل و هو في السجن قبل نفيه بعدها إلى سيبيريا.

30. مسألة عدم وجود قطيعة بين الثورتين الديمقراطية و الاشتراكية بخصوص ألمانيا، طرحها البيان الشيوعي كذلك: "يوجه الشيوعيون اهتمامهم الرئيسي إلى ألمانيا لأنها على أعقاب ثورة برجوازية... فالثورة البرجوازية لا يمكنها أن تكون إلا مقدمة مباشرة لثورة بروليتارية". و هي هنا لا تعني مقدمة منفصلة عن الثورة الاشتراكية، بل هي جزء لا يتجزأ منها. و إلا في هذه الحالة، على البروليتاريا أن تعمل ذليلا على رفع أولا مصاصي دماءها إلى السلطة، كونهم لوحدهم لن يستطيعوا ذلك من دون حلف البروليتاريا و الفلاحين. و حتى في هذه الحالة، أي رفعها إلى السلطة، فلن يستطيعوا تحصيل كل السلطة السياسية.

- 1 - تمركز الانتاج و الرأسمال تمركزا بلغ في تطوره حدا من التطور أدى إلى نشوء الاحتكارات التي تلعب الدور الفاصل في الحياة الاقتصادية
- 2 - اندماج الرأسمال البنكي و الرأسمال الصناعي و نشوء الطغمة المالية
- 3 - تصدير الرأسمال ، خلافا لتصدير البضائع
- 4 - تشكيل اتحادات رأسماليين احتكارية عالمية تقتسم العالم
- 5 - انتهى تقاسم الأرض إقليميا بين كبريات الدول الرأسمالية و ابتداء تقاسم العالم بين التروستات العالمية.

فالإمبريالية هي الرأسمالية في مرحلة سيطرة الاحتكارات و الرأسمال المالي و تصديره.

4 - الإمبريالية هي تمهيد للثورة الاجتماعية للبروليتاريا (لينين)

33 - حاول "كاوتسكي" طمس حقيقة الإمبريالية معتبرا إياها شكل من أشكال سياسة الرأسمالية الحديثة ، و هو ما اعتبره لينين تبشيرا بالاتفاق مع الإمبريالية و تجميلا لوجهها ، لأن "النضال" ضد سياسة التروستات و البنوك ، دون مساس بأسس اقتصادها ، يؤدي إلى الإصلاحية و المهادنة مع البرجوازية.

"المتقدمة" التي أقحمت الوضع العام ، بفضل تسليحها ، في الحرب و تقاسمت ثروات الشعوب³² :

"إن البلدان مصدرة الرساميل قد اقتسمت العالم فيما بينها بمعنى الكلمة المجازي. غير أن الرأسمال المالي قد أفضى إلى اقتسام مباشر للعالم. (لينين).

حدد لينين الكيفية التي بها تبلور الرأسمال المالي و بروز الطغمة (الأوليغارشية) المالية في اندماج الرأسمال البنكي بالرأسمال الصناعي ، و هيمنت في البلدان الرأسمالية "المتقدمة" ، حيث لا يوجه فائض الرأسمال إلى الرفع من مستوى معيشة الجماهير ، بل إلى المزيد من الربح و مضاعفته عن طريق تصديره إلى البلدان "المتخلفة" التي انجذبت بالعنف إلى خط الرأسمالية و بدأ فيها تهيج الظروف الأولية ل "التطور الصناعي". "إن القرن العشرين (يقول لينين) هو نقطة التحول من الرأسمالية القديمة إلى الحديثة ، من سيطرة الرأسمال بوجه عام إلى سيطرة الرأسمال المالي" و الاحتكارات التي فيها تكمن النزعة إلى السيطرة و العنف.

هي الإمبريالية³³ التي كشف لينين عمق تناقضاتها و حدد علاماتها الخمس الأساسية في:

32 - و ليس من قبيل الصدف أن أفضت السرعة الكبرى في تطور الرأسمال المالي في فرنسا مع إضعاف الرأسمال الصناعي إلى اشتداد سياسة الإلحاق الاستعمارية لأقصى حد... "لينين.

الأوتوقراطية للتحالف معها و إجهاض الثورة في عدم القضاء على الإقطاع و السلطة القيصرية، أو الانصراف مع باقي الطبقات البرجوازية و ابتعادهم عن الثورة.

وفق هذا الطرح المنشفي إذن، على البروليتاريا أن تمارس ضغطا خارجيا يدفع في اتجاه يجبر البرجوازية اللبرالية على قيادة الثورة البرجوازية الديمقراطية حتى "نهايتها"، أي أن يكون للبروليتاريا دور ثانوي و ذيلي للبرجوازية اللبرالية.

عكس هذا الطرح المنشفي، و الذي أطلق عليه البلاشفة ب " تكتيك خيانة الثورة"، أو " تكتيك يحول البروليتاريا إلى طرف ذيلي يثير شفقة الطبقات البرجوازية"، جاء الطرح اللينيني الذي يجد جذوره في الخطوط الماركسية الأساسية، عصر الرأسمالية، بخصوص البلدان التي انوجدت فيها برجوازية لبرالية عاجزة سياسيا أمام الإقطاع و السلطة الاستبدادية. ليؤكد على أنه رغم كون الثورة الوشيكة ذات طبيعة برجوازية ديمقراطية، فإن البروليتاريا هي من يهتم في المقام الأول بنجاحها الكامل و الشامل، أي في القضاء على الإقطاع و السلطة القيصرية. نجاحها الشامل هذا، سيجعل البروليتاريا قادرة أكثر على التنظيم و التطور سياسيا، و على اكتساب الخبرة و التجربة في القيادة السياسية للجماهير العاملة، و بالتالي الانتقال مباشرة من مرحلة

اعتقد جل الماركسيين الروس أن الثورة التي بدأت تلوح في الأفق، سوف تمر من مرحلتين مختلفتين، مرحلة الديمقراطية البرجوازية و متابعة التطور الرأسمالي ثم إطلاق الثورة الاشتراكية، إلا لينين الأكثر تشبعا و عمقا بالنظرية الثورية، كانت له نظرة عميقة بما ستكون عليه الثورة الروسية، و على الخصوص في مرحلتها الديمقراطية الثورية و الربط الديالكتيكي بينها و بين الثورة الاشتراكية.

هكذا زعم المناشفة، و كذا في البداية العديد من البلاشفة، أن هذه الثورة الوشيكة لن تكون إلا ثورة برجوازية، و بما أن طبيعتها ديمقراطية برجوازية، فيجب أن تكون بقيادة البرجوازية اللبرالية. لهذا، و جب على البروليتاريا أن تعمل على مساندة و دعم البرجوازية اللبرالية و أن لا تقيم أية رابط بينها و بين الفلاحين³⁴ الذين يشكلون الأغلبية العددية. و بالتالي، يجب على البروليتاريا أن لا تتولى قيادة هذا التحالف لأجل الثورة، و أن لا تنخرط بشكل حماسي و نشيط يفوق أو يتجاوز انخراط البرجوازية اللبرالية، لأنها بهذا الشكل، ستدفع البرجوازية اللبرالية للهروب إلى أحضان

34. من بين تلك الأطروحات، الطرح "التروتسكي"، صاحب نظرية "اليأس الدائم"، الذي دافع في اتجاه حرمان البروليتاريا من الحليف الموضوعي الأكثر موثوقية، و تجاهل كليا دور حركة الفلاحين في الاستيلاء على السلطة.

البروليتاريا. بهذا الشرط، يصبح الفلاحون حصن الثورة و الجمهورية. لأنها وحدها ثورة منتصرة بالكامل، يمكن أن تمنحها كل شيء في مجال الإصلاح الزراعي. كل ما يرغب فيه الفلاحون، كل ما تحلم به، كل ما هو ضروري بالنسبة لها." (لينين).

لهذا دافع و عمل البلاشفة، عكس الطرح المنشفي القائل بالتحالف مع البرجوازية، في اتجاه عزل هذه الأخيرة و شل تذبذبها للقيام بالثورة البرجوازية الديمقراطية بكاملها تحت القيادة السياسية و الإيديولوجية للحزب البروليتاري.

في رده على الطرح المنشفي الذي يقول بضرورة عدم الانخراط في التحالف مع الفلاحين مخافة تراجع و ابتعاد البرجوازية و إجهاض الثورة، يقول لينين: "من يستوعب فعلا دور الفلاحين في الثورة الروسية المنتصرة، لن يقول إن مدى الثورة سيتقلص حين ستتراجع و تبتعد البرجوازية. لأن الانطلاقة الحقيقية للثورة الروسية لن تبدأ فعلا، لن تحقق الثورة فعلا أقصى مدى ممكن في إطار حركة ديمقراطية برجوازية، إلا حين ستتراجع البرجوازية. و أن جماهير الفلاحين تمضي مرافقة للبروليتاريا، و تتولى دورا ثوريا فعلا و نشيطا. كي تتم و تنجز و بشكل متسق حتى النهاية، ثورتنا الديمقراطية يجب أن تستند على قوى قادرة على شل تناقض و تذبذب

الثورة البرجوازية الديمقراطية إلى مرحلة الثورة الاشتراكية³⁵. فالبروليتاريا مهتمة أكثر بانتصار الثورة البرجوازية الديمقراطية أكثر من البرجوازية نفسها، لأن "الثورة البرجوازية هي، بمعنى ما، إيجابية جدا و لها فائدة كبيرة للبروليتاريا على البرجوازية" (لينين). لهذا يجب على البروليتاريا تولي قيادة الثورة، لكنها لوحدها لن تستطيع تأدية مهمة الثورة البرجوازية الديمقراطية بنجاح كامل، من دون المساهمة النشيطة و الفعالة لحليف موثوق موضوعيا فيه. هذا الحليف حدده لينين و البلاشفة في جماهير الفلاحين، كونهم هم الآخرين لهم كل المصلحة في نجاح الثورة، لأنها ستمكنهم من انتزاع أراضيهم و تصفية حساباتهم مع طبقة ملاكي الأراضي، فاهتمامهم "يتركز في مصادرة أراضي الأسياد (الشكل الأساسي للملكية) أكثر من اهتمامهم في الحفاظ على الملكية الخاصة." (لينين). ففئة الفلاحين و من دون أن تكون اشتراكية أو أن تتوقف على أن تكون برجوازية صغيرة، هي "قادرة على أن تصبح حليفا حازما و ثابتا و الأكثر جدية للثورة الديمقراطية. ستصبح لا محالة إذا استمر مجرى الأحداث الثورية التي تعلمها، و لم تنقطع مبكرا بخيانة البرجوازية و هزيمة

35. شكل هذا الطرح البلشفي الثوري ضربة قاسمة ل نظرية "اليأس الدائم" المقنعة باسم الثورة لصاحبها "تروتسكي"، و هو الذي دعا، عشية ثورة فبراير إلى استيلاء البروليتاريا مباشرة على السلطة. أكيد، أنها كانت ستكون ضربة قاسمة للثورة الديمقراطية بقيادة البروليتاريا و الفلاحين، كونها، شكلت، عمليا، نظرية مضادة للثورة.

البرجوازية (تريد الثورة، لكن تريدها منقوصة، في حدود معينة تخدم فقط مصلحتها) أي قادرة فعلا على إجبارها على الابتعاد..".

على خطى الطرح الماركسي المركزي في ضرورة "بناء دولة الديكتاتورية البروليتارية لسحق طبقة البورجوازية و مقاومتها".. "تسليح البروليتاريا".. "الانتظام في جيش بروليتاري مستقل ذاتيا.."، طرح الحزب الثوري البلشفي، في إطار الثورة الديمقراطية للبروليتاريا و الفلاحين، و بهدف الانتصار الحاسم و الشامل على القيصرية الذي يجب "أن يستند على القوة المسلحة (تسليح الجماهير) و على الانتفاضة و ليس على المؤسسات المشككة "قانونيا" (الطريق السلمي)"، بناء سلطة سياسية مؤقتة هي الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا و الفلاحين، يكون هدفها القضاء على الأوتوقراطية و تحطيم و بالقوة مقاومتها، و شل تذبذب البرجوازية، أي القيام بمهام الثورة البرجوازية الديمقراطية حتى نهايتها:

"الانتصار الحاسم للثورة على القيصرية، هو الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا و الفلاحين..." (لينين).

فالتحولات الضرورية للبروليتاريا و جماهير الفلاحين تدفع القيصرية و الملاكين العقاريين و البرجوازية الكبيرة إلى مقاومة هذه التحولات، بنفس

المنطق الذي يدفع البرجوازية المطاح بسلطتها إلى مقاومة السلطة السياسية للبروليتارية في مرحلة ديكتاتورية البروليتاريا.

فمن دون الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا و الفلاحين، يستحيل تحطيم هذه المقاومة (هو جوهر الطرح الماركسي في ضرورة تحطيم الديكتاتورية البروليتارية لمقاومة البرجوازية بعد الاستيلاء على سلطتها السياسية). فهي هنا، الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا و الفلاحين، ليست ديكتاتورية اشتراكية، و لكن ديكتاتورية ديمقراطية. لأنها لن تستطيع بعد ضرب أسس الرأسمالية و إطلاق سيرورة التحويل الاشتراكية.

لم يضع البلاشفة فاصلا بين الثورتين الديمقراطية و الاشتراكية. فالأولى ليست هدفا في ذاتها، بل هي مرحلة أولى ضرورية و أساسية في اتجاه الجمهورية الاشتراكية. مرحلة ضرورية في تطور حركة البروليتاريا الثورية و تقدمها نحو ديكتاتورية البروليتاريا. و هذا لا يمكن تحقيقه إلا إذا كانت البروليتاريا على رأس الشعب، و على الخصوص الفلاحين في مرحلة الثورة الديمقراطية. و على رأس جماهير العمال في مرحلة الصراع من أجل الاشتراكية.

5 - رصد أولي مركز ل"ماركسية" القوى الانتهازية سياسيا و الانتقائية أيديولوجيا

تضع بعض القوى السياسية الفكر الماركسي (وحده) مرجعا لها، بعد تصنيفها الجبانة ("نقد" ממركز وسط صفوف قيادتها و طمس مواقفها عن قواعدها) ل"اللينينية" و عزلهم لها عنها، معتبرين التجربة الثورية البلشفية، هكذا، مجرد تجربة سياسية محدودة تاريخيا كأي تجربة سياسية ثورية أخرى، ناجحة كانت أو فاشلة، و جب فقط استخلاص بعض الدروس منها جميعها. مع تركيزهم المسموم و الموصوم بالإيديولوجية اللبرالية، على الأخطاء العملية لما بعد الانتصار التاريخي لتلك التجربة الثورية الذي به فتحت أمام البروليتاريا أمميا طريقها الثوري و شقت عصر اندحار الرأسمالية، من دون أن تربط تلك القوى أخطاء تلك التجربة و لا حتى فشالاتها، ديالكتيكيا و ليس تقابليا بنجاحاتها و انتصاراتها، و من دون تقديم الدراسات و التحاليل التاريخية النقدية الضرورية لاستخلاص الدروس العملية من تلك الأخطاء.

هذه القوى المدعية للماركسية، "بدون لينينية"، تضرب أخماس في أسداس، حين يتعلق الأمر ببعض الأطروحات الماركسية المركزية:

لقد حدد البلاشفة بقيادة لينين، و بدقة، استراتيجية و تكتيك حزب البروليتاريا في مرحلة الثورة الديمقراطية البرجوازية المتصلة بالثورة الاشتراكية:

"على رأس الشعب بكامله، و على الخصوص الفلاحين، من أجل الحرية الكاملة، و من أجل ثورة ديمقراطية متسقة، من أجل الجمهورية.

على رأس العمال و كل المستغلين من أجل الاشتراكية. هذا ما يجب أن تكون عليه عمليا سياسة البروليتاريا الثورية، هذا هو جدول أعمال الطبقة التي يجب أن تسيطر و تحدد حلول كل المشاكل التكتيكية، كل الإجراءات العملية للحزب خلال الثورة" (لينين)

"على البروليتاريا أن تقوم بالثورة الديمقراطية حتى النهاية، بالتحالف مع الفلاحين لسحق بالقوة مقاومة الأوتوقراطية و شل تذبذب البرجوازية.

على البروليتاريا أن تقوم بالثورة الاشتراكية بالتحالف مع العناصر الشبه البروليتاريا من الشعب لتحطيم بالقوة مقاومة البرجوازية و شل تذبذب الفلاحين و البرجوازية الصغيرة. هذه هي مهام البروليتاريا" (لينين).

ديكتاتورية البروليتاريا³⁶، العنف الطبقي البروليتاري الثوري و راهنية قيادة البروليتاريا للثورات.

حقيقة، إن تصفية هذه القوى السياسية ل "اللينينية" هو في جوهره تصفية لهذه الأطروحات الماركسية المركزية. فماذا تبقى من ماركسية هؤلاء، و من الماركسية ذاتها في تعاطي هؤلاء لها، بعد تصفيتهم لتلك الأطروحات حول البروليتاريا؟ و انتقائهم لموضوعات هي، من دون ترابطاتها الداخلية و العضوية بالموضوعات الماركسية المركزية حول البروليتاريا، تفقد كليا مضمونها المادي التاريخي الثوري و كونيتها مرحلة الهيمنة الرأسمالية عالميا. فالحديث عن الصراع الطبقي دون ربطه بحركة البروليتاريا و مهمتها التاريخية في الاستلاء على السلطة السياسية و بناء دولتها الديكتاتورية الثورية، هو حديث لا رابط داخلي له بالفكر الماركسي، بل هو في مضمونه لا يختلف عن مضمون فكر لبرالي القرن التاسع عشر (نحن في هذه الحالة خارج الإطار الفكري الماركسي) الذين أوجدوا موضوعة الطبقات و صراعاتها

36. "ديكتاتورية البروليتاريا هي المحك الذي يسمح باختبار مدى فهم و إدراك الماركسية."

لينين

"من يخشى ديكتاتورية البروليتاريا، و يحلم بالقيمة المطلقة للمطالب الديمقراطية، هذه بالضبط هي الانتهازية" لينين.

و بشهادة ماركس نفسه (أنظر رسالة ماركس ل "وايد ماير" بتاريخ 5 مارس 1852).

أما المادية الديالكتيكية التي يقدمها هؤلاء "الماركسيين" على أنها، هكذا فقط، منهجية للتحليل، هي في حقيقتها هنا، أي في أيديولوجية هؤلاء، "ديالكتيكية" من دون مادية، كالأيديولوجية المنفصلة عن طبقتها (الاستيلا ب الإيديولوجي). و كأنه، أي هذا الديالكتيك الذي يقدمه لنا هؤلاء "الماركسيين"، هو مفتوح (بنفس المنطق الذي ينوجد عليه جهاز الدولة البرجوازي في تصور أصحاب إيديولوجية التداول السلمي على السلطة و طريق البرلمانية) بيد كل الطبقات، مثقفوها و أحزابها المعبرة عن مصالحها و طموحاتها، تستخدمه (أي الديالكتيك) كلها و ببراعة علماء الرياضيات لتحصيل نفس النتائج بعد طرح نفس البراهين و التحاليل لنفس المسائل و القضايا (المسائل - الواقع واحد، و الطريقة - المنهجية واحدة، ليكفي فقط الضبط الذهني لعناصر هذه المنهجية و قوانينها في التحليل لتحصيل نفس النتائج السليمة - المنطقية).

و كأن المادية الديالكتيكية هي خارج الطبقات هي الاخرى و خارج تاريخ صراعاتها، أو أن كل المسألة، أي مسألة المادية الديالكتيكية، تتلخص كلها في الاستيعاب الفكري - الذهني المجرد من كل موقع اجتماعي (المادة) و من كل ممارسة - ديناميكية اجتماعية (حركة) و ما تقدمه هذه

الأخيرة من معطيات و معارف (حركة المادة، إلا أنها هي هنا واعية)، و بالتالي، مجردة من كل معرفة يوطرها و يحددها ذاك الموقع الاجتماعي في ديناميكيته، أي في صراعه ضد مواقع اجتماعية أخرى (فالتناقض هو محرك الأشياء)، على شاكلة ذكاء و عبقرية الاشتراكيين الطوباويين الأوائل الذين ابدعوا في تشييد "مجتمعات اشتراكية" من رماد بعد أن «لم يروا في البروليتاريا أي نشاط تاريخي و لا أي حركة سياسية خاصة بها» البيان الشيوعي.

إن كانت مسألة الديالكتيك المادي بذاك الشكل الذي به تتصوره هذه القوى، فلما لا يبدعون في التعميق و التطوير الذهني لعناصره، و إن اعتقدوا أنه نهائي، و هو واقع الأمر المضر و الضمني في تقديمهم له، فتلك و بلغة هذه القوى الانتهازية التي ما فتأت تنعت بها اليسار الثوري الماركسي اللينيني، عقائدية و جمود (هنا على هذا المستوى من نهائية الديالكتيك المادي في منظور هؤلاء، يلتقي خط "الجمود العقائدي" مع خط الانتهازية و الانتقائية).

في الحقيقة لن نجد هنا أفضل من ما كتبه انجلز في كتابه "لودفينغ فويرباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية" حول هذه المسألة: "كيف باستخدام منهج ثوري بعمق (يقصد الديالكتيك)، نتوصل لنتائج سياسية جد معتدلة".

في الواقع، هذه القوى الانتهازية سياسيا، تتموقع إيديولوجيا في مرحلة ما قبل صعود الماركسية لواجهة الصراع الطبقي و تخندقها طيلة تبلورها النظري في قلب حركة البروليتاريا. فهي، تلك القوى، مرتبطة بسياسة و إيديولوجية البرجوازية الليبرالية و تدافع عمليا على التحالف معها ضد الاستبداد السياسي و الاقتصادي، فهي من أنصار صناعة الوهم. البناء الرأسمالي بقيادة برجوازية (ما يسمى ب "الثورة الوطنية الديمقراطية"، بقيادة برجوازية)، و على الطبقة العاملة، بعد أن تناضل ذيليا³⁷ لإيصال هذه القوى الاجتماعية الليبرالية إلى السلطة، أن تتحمل بنفسها مسؤولية تخليص نفسها من من أوصلتهم هي إلى السلطة. و كأن تاريخ هذا العالم لم يعرف لا مرحلة إمبريالية، و لا ثورة اشتراكية، و لا انهزام هذه الأطروحات التحريفية إيديولوجيا و سياسيا، و لا إفلاسها تاريخيا.

هذا الأمر، ليس هو فقط تخل عن البروليتاريا و خيانتها من طرف هذه القوى التي تدعي الماركسية، بل هو عمليا قبول بالرأسمالية و استسلام لها. لدى كان النضال البروليتاري ضد الامبريالية و وكلائها المحليين، هو وثيق الصلة بالنضال ضد الانتهازية، و إلا، كما يقول "لينين": "يكون - ذاك النضال - عبارة فارغة و كاذبة."

37. "إيديولوجية الذيلية هي أساس الانتهازية" لينين.

إن من يعادي الثورة البروليتارية .ديكتاتورية البروليتاريا و العنف البروليتاري الثوري، إما أنهم لا يعلمون و لا يستوعبون ما يقولون، و هم بهذا يساهمون عمليا في زرع الضبابية و التخبط، أو هم فعلا يعلمون بذلك، و هم بهذا يتخلون علنيا و عمليا، و يخونون قضية البروليتاريا. و في الحالتين معا، هم يخدمون الرجعية القائمة.

حمو العبيوي

يناير 2017